

الحياء في حياة المسلم

عبدالرحمن بن فؤاد الجار الله

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الحمد لله، وأشهد أن لا إله إلا الله، وأشهد أن محمداً رسول الله. صلى الله وسلم عليه وعلى آله وأصحابه ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الدين، آمين... أما بعد:

فإن الغاية من خلق الإنسان، وإيجاد البشر، هي عبادة الله عز وجل حقَّ العبادة، كما جاءت في كتاب الله، وسنة رسوله صلى الله عليه وسلم، قال الله عز وجل: ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾^(١).

ومع هذا فقد جعل الإسلام العبادات والأخلاق نسيجاً واحداً؛ فلا أخلاق صلّة وثيقةً بعبادة الأمة ومبادئها، فهي عنوان التمسك بالعبادة، ودليل الالتزام بالمبادئ والمثل، وأكمل المؤمنين إيماناً أحسنهم خلقاً، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (أَلَا أَخْبِرُكُمْ بِأَحَبِّكُمْ إِلَى اللَّهِ، وَأَقْرَبَكُمْ مِنِّي مَجْلِساً يَوْمَ الْقِيَامَةِ؟. قَالُوا: بَلَى، قَالَ: أَحْسَنُكُمْ خُلُقاً). رواه ابن حبان في صحيحه. فأحسنهم خلقاً أقربهم منزلةً ومجاورةً للحبيب يوم القيامة.

ومن خلال استقراء الكتاب والسنة نجد أن الإسلام شمل تحته أحوال المسلم كلها، ومن ذلك أخلاقه، فمن شمولية هذا الدين وعظمته أنه دين الأخلاق الفاضلة والسجيا الحميدة.

والأخلاق هي الجانب العملي للعبادات، والأثر الطبيعي الذي تحدّثه العبادة والتدين في سلوك الإنسان. فالناس لا يرون من الإنسان عبادته وعلاقته مع الله عز وجل، وإنما المهم بالنسبة لهم أن يجدوا في ذلك الإنسان المتدين، الملتزم بالعبادات، أخلاقاً موازية لتدينه، والتزامه في حقّ ربه، فالعبادة هي العلاقة بين العبد وربّه، والخلق هو العلاقة بين العبد وبين الناس.

ولذا سيظلّ التدين الحقّ حاجزاً منيعاً في وجه الانحطاط الخلقي؛ لأن القيم مهما كانت عميقة يمكن أن تخضع للتطور الذاتي، ويمكن أن تؤوّل على نحو يفرغها من مضامينها، ويمكن تجاوزها إذا لم تكن مرتكزة إلى عقيدة وإلى إطار مرجعي غيبي ولا بشري.

وإن الذين يوهنون الحسّ الإسلامي لدى الأمة يكيدون للأخلاق ويعرضونها لمحنة عظيمة^(٢).

والأخلاق إضافةً إلى ذلك أساس قيام الحضارات، - كما سيأتي ذلك في الآثار -.

وصلاح حياة الفرد، واستقامة نظام المجتمع، لا تقوم إلا على توجيهات الشرع الحكيم، ورأس ذلك معاملة الناس بالخلق الحسن الجميل، ومعاملتهم بما يجب أن يعاملوه به، حتى يصبح المسلم أليفاً، يُحبُّ

(١) سورة الذاريات، آية ٥٦.

(٢) بصائر في العلم والثقافة، ٨١/١.

الناسَ ويُحبونه، ويُكرمهم ويُكرمونه، ويُحسن إليهم ويُحسنون إليه، عندها يندفع كل فرد في المجتمع إلى القيام بواجبه راضياً مطمئناً، فتستقيم الأمور، وتسود القيم، وتقوم الحضارة.

إذا تقرر هذا: فليعلم أن معيار الأخلاق الحسنة وعلامتها هو الحياء، كما أنه رأس مكارم الأخلاق، قالت أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها: (رأس مكارم الأخلاق الحياء) ^(١). وهو علامة الكرم، كما أنه شعبة من شعب الإيمان، وخلق نبوي كريم، قال عنه النبي صلى الله عليه وسلم: (الحياء لا يأتي إلا بخير) سيأتي تخرجه. إذن فهو يحمل طابعاً تعبدياً؛ إذ يحث الدين ويأمر به. كما تهتم كثير من النصوص بإظهار وإبراز مزاياه وفضائله. وهو دليل على كرم السجية، وطيب المنبت، فالحياء فطرة، والحياء دين، وهو: حلة جمال، وحلية كمال في عيون الناس صاحبه، ويزداد قدره ويعظم جانبه، وإذا رأى ما يكره غضَّ بصره عنه، وكلما رأى خيراً قلبه وتلقاه، أو أبصر شراً تحاماه، يمتنع عن البغي والعدوان، ويحذر الفسوق والعصيان، يخاطب الناس كأهم منهم في خجل. ويتجنب محارم الله عز وجل. فمن لبس ثوب الحياء استوجب من الخلق الثناء، ومالت إليه القلوب، ونال كل أمر محبوب، ومن قلَّ حياؤه قلت أحبائه ^(٢).

ومن ثم فإن تحلى به الشخص كان في أحسن صورة، وأحلى تصرف، وأجمل فعال.

كانت تلك صورة الحياء المشرقة، التي تمثلت في حياة الرسول الحبيب صلى الله عليه وسلم وصحابته الكرام والسلف الصالح، سطروها على صفحات بيضاء مشرقة، سيحفظها التاريخ بمداد من ذهب.

وتمر السنون، والقرون، والمبادئ والقيم في انحدار -بشكل عام-، لا يخفى على متأمل، حتى يأتي زمن العولمة، فيحس المصلحون حينها بذلك الانحدار الهائل في القيم والمبادئ، وصاحبه -بداهة- فقد للحياء فهو أساس لها، فيتجهون إلى توعية المجتمعات، وتوجيههم، ومحاولة الرجوع بهم عن ذلك المنحدر، ولم يمض على تلك الصحوه سوى عقود قريبة، فلم يُشعر بفقد الحياء إلا حينذاك.

ولا يزال المصلحون من الأمة الإسلامية في محاولة إلى تصحيح مسار الأمة في مبادئها وقيمها وسلوكها، ومن ذلك ما قام ويقوم به العلماء -ورثة الأنبياء-، فعليهم المعول في الإصلاح، كذلك المفكرون من النواحي النظرية، ومما لا يمكن إغفاله في مثل هذا ما تقوم به مراكز البحوث، والباحثين، والمُصنِّفين في محاولة النهوض بالأمة في شتى المجالات، ومن ذلك المجال الأخلاقي والسلوكي، والتصنيف فيه قدیم، لا يخفى على مُطَّلِع، ولا تزال تلك المحاولات وغرضها الأول الرقيُّ بالأمة، ومع تلك المحاولات الكثير إلا أن هذا المجال لم ينضج بعد، وإني ومن خلال هذا الجمع المتواضع في رأس تلك الأخلاق، الذي إن كان، كانت الأخلاق، وثمر المبادئ، (الحياء)، لأرجو أن أكون ممن يُسهم في رقيِّ الأمة، والنهوض بها نحو الأفضل كما أراد لها الله عز وجل، متطفاً بذلك على صف المصلحين، وأهل الفضل، ولم أكن لأُسهم فيه لو كان أشيع دراسة، أو قُتل بحثاً كما يُقال، أو نضج، فلما أن رأيت أن الحاجة ماسةٌ لمثله، خاصة أن الوضع العام للأمة

(١) الآداب الشرعية، ٢٢٠/٢، ومكارم الأخلاق، ٣٤/١.

(٢) حكم وآداب من مآثر العرب، ١٢٩/٢.

لا يزال في الخدار لا يخفى، ولست -بحمد الله- ممن يقطع الرجاء في تغيير العادات وإصلاح الأوضاع، فعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (إذا قال الرجل هلك الناس فهو أهلكهم) ^(١).

وبهذا الصدد فإن كثيراً من الناس يستقبلون تلك المقولات القاطعة للرجاء في التغيير بالارتياح؛ لأنها تعفيهم من مجاهدة النفس، والارتداد عن سيئ الفعال؛ مع أن من المهام الأساسية للنبي صلى الله عليه وآله وسلم تزكية النفوس، وقد آتت تربيته أكلها. ومهمة المربين الناصحين من بعده القيام بالدور ذاته؛ وقد رأينا الكثير من ثمار جهودهم في إصلاح النفوس، وتقويم الاعوجاج. بصائر في العلم والثقافة ٣٥/١-٣٦، بتصرف. أقول: فلما أن رأيت الحاجة ماسة لدراسة جادة في الموضوع، تسهم في العلاج، بأطر شرعية، على فهم السلف الصالح -رحمهم الله-، وأعلم أنني بهذا أرتقي مرتقاً صعباً، وألج مولجاً صلباً، وليس مثلي من يقوم به، ولكن مكره أذاك لا بطل، وإبراء للذمة، وتبعاً لذلك تكليف الدراسة الأكاديمية، لمادة البحث العلمي للمستوى الرابع من كلية الشريعة، لهذا وذاك كان هذا البحث المتواضع، سائلاً الله عز وجل التوفيق والسداد، ومنه وحده العون والطول.

وحرصتُ لعلمي بالعجز عن الإحاطة بجوانب الموضوع، على الإشارة وعلى عُدالة إلى العناصر الخورية، والجوانب الأصيلية، في الموضوع، واجتهدت في اختيار تلك العناصر، والخطأ من لوازم البشرية، ولكن حسبي أن كلَّ مجتهدٍ مصيب.

وقد سرتُ في الكتاب وفق الخطة التالية:

١. المقدمة: وتشمل ثلاث عناصر:

أولاً: أهمية الموضوع، والحاجة إليه.

ثانياً: أسباب اختيار البحث، والدراسة فيه.

ثالثاً: بيان خطة البحث، والمنهج في الدراسة والبحث.

٢. الفصل الأول: حقيقة الحياء: واشتمل على مبحثين:

المبحث الأول: تعريف الحياء. واشتمل على مطلبين:

المطلب الأول: تعريفه لغة.

المطلب الثاني: تعريفه اصطلاحاً.

المبحث الثاني: العلاقة بين المعنيين اللغوي والاصطلاحي، وسبب تسميته بالحياء.

(١) رواه مسلم (٢٠٢٤/٤)، برقم (٢٦٢٣)، كتاب البر والصلة والآداب، باب النهي من قول هلك الناس .

٣. الفصل الثاني: منزلة الحياء في الشريعة الإسلامية.

٤. الفصل الثالث: بين الحياء والأخلاق. واشتمل على مبحثين:

المبحث الأول: بين الحياء والخجل.

المبحث الثاني: بين الحياء والرياء.

٥. الفصل الرابع: تقاسيم الحياء. واشتمل على أربعة مباحث:

المبحث الأول: تقسيم الحياء من حيث الأصل.

المبحث الثاني: أقسام الحياء.

المبحث الثالث: أنواع الحياء.

المبحث الرابع: درجات الحياء.

٦. الفصل الخامس: مواقف من الحياء. واشتمل على ثلاثة مباحث:

المبحث الأول: من حياء الأنبياء - عليهم الصلاة والسلام -.

المبحث الثاني: من حياء الصحابة - رضي الله عنهم -.

المبحث الثالث: من حياء السلف - رحمهم الله -.

٧. الفصل السادس: من مظاهر الحياء. واشتمل على مبحثين:

المبحث الأول: من مظاهر الحياء.

المبحث الثاني: من المظاهر المنافية للحياء.

٨. الفصل السابع: وسائل اكتساب الحياء وتنميته.

٩. الفصل الثامن: آثار الأخلاق، والحياء على المجتمع والفرد، واشتمل على مبحثين:

المبحث الأول: آثار الأخلاق على المجتمع والأمة والفرد. وفيه مطلبين:

المطلب الأول: بالنسبة للمجتمع والأمة.

المطلب الثاني: بالنسبة للفرد:

المبحث الثاني: آثار الحياء الخاصة.

ثبت المصادر والمراجع.

ثبت الموضوعات.

هذا وإني لا أدعي الإحاطة ولا الاستيعاب، لا. فدون ذلك حرط القتاد، وفثُّ الأكباد، فلا يفي بهذا الخلق العظيم، والبحر الزاخر، بطون الكتب، ومضامين الأسفار، فضلاً عن هذه الأوراق والسطور، فمثل هذا بحاجة إلى دراسات طويلة، مُعمقة، وموضوعية، وكلُّ هذا مما لا يتقنه مثلي.

وهدي من هذه الدراسة المتواضعة هو جمع شيءٍ مما تفرق في الموضوع، من خلال جمع أقوال السلف، وأهل العلم - رحمهم الله تعالى -، من بطون الكتب، ومضامين الأسفار^(١)، فكلُّ الخير في اتباعهم:

وخير الأمور السالفات على الهدى وشر الأمور المحدثات البدائع

وبذلت فيها جهدي، فمن مقاصد التأليف السبعة التي لا يُؤلفُ إلا في أحدها: شيء متفرق يجمعه أو شيء مختلط يرتبه، ...،^(٢).

وقد حرصت في البحث على إيراد كلام السلف - رحمهم الله تعالى - حسب المناسبة، فيما ظهر لي، وإن رأيتُ بها غنيّةً عن التعليق استغنيت، وإن رأيت الحاجة ماسةً إلى التعليق بذلت جهدي، ومع ذلك فلست كالأول حين قال:

وإني وإن كنت الأخير زمانه لآتٍ بما لم تستطعه الأوائل^(٣)

كما أن مما أوردته شيئاً من كلام السابقين فيه من نَفَسِ الصوفية، وقد أعلق عليها إن رأيتُ الحاجة إليه، أو أتركه لوضوحه. وفي تخريج الأحاديث قد أقف على خبر لا أجده في شيء من كتب السنة، وبالتالي أذكر من ذكرته من كتب التخرّيج مع الإحالة على الجزء، ورقم الصفحة، ورقمه - إن وُجد -.

كما أني استعنت بشيء من المقالات المنشورة في الشبكة العنكبوتية، فيما نقلته من الأقوال، أو الأخبار، وأحياناً، وقد أستفيد من الفكرة الرئيسة للمقال، وقد أوثق المقال إن كان موثقاً، ولم أتخذها عادةً؛ لأنه لم تجر عادة الباحثين على أن الشبكة مصدراً من مصادر المعلومات، - في حدٍّ علمي -.

كما أني قد أستفيد من كتاب في فكرة، في أكثر من فقرة في المبحث، فأحيل عليه في آخر المقال بـ (انظر: ...).

وأخيراً:

(١) ولست بذلك أنحو نحو من قال: (ما ترك الأول للآخر شيئاً)، فقد نصَّ أهل العلم على ألا كلمة أضر بالعلم والعلماء والمتعلمين منها. انظر: قواعد التحديث ٣٩/١، والإبهاج ٣٤٥/٢، وجامع بيان العلم وفضله ٩٩/١. قال الجاحظ كما في معجم الأدباء ٤٧٦/٤: (إذا سمعت الرجل يقول: ما ترك الأول للآخر شيئاً، فاعلم أنه ما يريد أن يفلح) أ.هـ.

والتصنيف بالجمع عادةً جارية عند الأئمة، والمصنفين، كما قال القاسمي في قواعد التحديث ٣٩/١: (أتأسى في هذا التصنيف الميمون بقول السيد مرتضى اليماني - رحمه الله - في كتابه (إثبات الحق على الخلق): وإنما جمعت هذا المختصر المبارك - إن شاء الله تعالى - لمن صنف لهم التصانيف، وعنيت بمدايتهم العلماء. وهم من جَمَعَ خمسة أوصاف: معظمهما الإخلاص، والفهم، والإنصاف، ورابعها - وهو أقلها وجوداً في هذه الأعصار - الحرص على معرفة الحق من أقوال المختلفين، وشدة الداعي إلى ذلك الحامل على الصبر والطلب كثيراً، وبذل الجهد في النظر على الإنصاف، ومفارقة العوائد، وطلب الأوابد) أ.هـ.

(٢) انظر: نفح الطيب ١٧٦/٣، وأبجد العلوم ١٨٩/١، وكشف الظنون ٣٥/١.

(٣) الحماسة المغربية، ٧٦٦/١.

فإني بالتقصير لمعترفٌ، ومن بحر الخطايا لمعترفٌ، ولكني متشبهٌ بأهل الفضل والعلم، من باب قول الأول:

فتشبهوا إن لم تكونوا مثلهم إن التشبه بالكرام فلاح^(١)

على أي-والله- لا أرى للنفس منزلةً تُعدُّ من منازل النبلاء، ولا للذات منهلٌ مورد كمناهل العلماء، كيف ذا؟!، ومن نحنُ إلى جانب تلك الجبال؟!، ولكني أرجو، والرجاء من عادة الموقنين، واليأس من عادة القانطين. سائلاً من الله الإجابة والتوفيق. كما أسأله تعالى مجانبة الزلل، والثبات على صراط الصواب، وأن يثيبني عليه من كرمه سبحانه جزيل الثواب، فله الحمد والفضلُ فقد منَّ حتى ظُفرٌ بدرراً استُخرجت من الأصداف، وبجواهر أُخرجت من الغلاف، فجاء البحث -بحمد الله وتوفيقه- فوق ما في الخواطر، فائقاً بكثرة الفوائد والنوادر، فمأمولي من الناظر فيه إن رأى حسناً دعاً، أو خللاً يُصلحُ عفا؛ فإن الإنسان غير معصوم^(٢)، على أي ممتثل في الحال بقول من قال :

ماذا تؤمل من أخي ثقة	حملته ما ليس يمكنه
إن بان عجز منه فهو على	عذر يبين إذا يبرهنه
قدمت فيما قلت معتذرا	هذا طراز لست أحسنه

وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين ،،،

(١) معجم الأدباء ، ٦١٥/٥ .

(٢) عمدة القاري ، ٤/١ " بتصرف " .

الفصل الأول

حقيقة الحياء

المبحث الأول : تعريفه :

المطلب الأول : تعريفه لغة:

الحياء: أصله من (ح ي ي)، وقيل: من (حيا)، وقيل من (ح ي و). وهو مصدر قولهم: (حَيَّيْ).

(وحَيَّيْ منه حياء) بالفتح والمد فهو حَيَّي على وزن فعيل.

يقال: استحيا الرجل يستحي واستحي يستحي معاً، والأول أعلى وأكثر.

وقد حَيَّي منه حياء واستحيا واستحي؛ وقد حذفت الياء الأخيرة كراهية التقاء الياءين.

والحياء على الأصح مشتق من الحياة^(١).

يقال: (حَيَّي) بمعنى: أصيبت حياته، ومسي بمعنى أصيب مساه.

ويُقال: استحياه واستحيا منه. بمعنى: من الحياء، ويقال: استحيت، بياء واحدة وأصله استحيت، فأعلوا

الياء الأولى وألقوا حركتها على الحاء، فقالوا: استحيت؛ لما كثر في كلامهم. وقال الأخفش: يتعدى بنفسه

وبالحرف، فيقال: استحيا منك، واستحياك، واستحي منك، واستحاك، واستحييت منه، واستحييته،

واستحيا منه، وقيل هما لغتان:

الأولى: استحي بياء واحدة لغة تميم؛ وإنما حذفوا الياء لكثرة استعمالهم لهذه الكلمة كما قالوا: لا أدري، في لا أدري.

الثانية: بياءين لغة أهل الحجاز وبها جاء القرآن وهي الأصل.^(٢)

قال الليث: يجوز قصر الحياء ومدّه وهو غلط لا يجوز قصره لغير الشاعر؛ لأن أصله الحياء من الاستحياء.

ويدل الحياء على الاستحياء الذي هو ضد الوقاحة^(٣)، وقد يقابله البذاء^(٤) (أي الفحش).

وفي المعجم في مادة (استحيا) قال: استحيا فلان فلاناً، خجل منه، وفي مادة (الحياء): الاحتشام^(٥).

قال الأخفش: وهو الانقباض والانزواء.

وقيل الحياء: بالمد التوبة والحشمة^(٦).

وجاء في الموسوعة الفقهية: الحياء لغة مصدر حَيَّي، وهو: تَغَيَّرَ وَانْكَسَرَ يَعْتَرِي الْإِنْسَانَ مِنْ خَوْفٍ مَا يُعَابُ بِهِ وَيَذَمُّ^(٧).

(١) المصباح المنير، ١/١٦٠.

(٢) مختار الصحاح، ١/٦٩-٧٠. بتصرف.

(٣) الوقاحة مأخوذة من القحة وهي: أَنْ يَقْلَّ حَيَاءُ الرَّجُلِ وَيَجْتَرَأَ عَلَى اقْتِرَافِ الْقَبَائِحِ وَلَا يَعْأُ بِهَا.

(٤) والبذاء لغة: السَّفَاهَةُ وَالْفَحْشُ فِي الْمُنْطَلِقِ وَإِنْ كَانَ الْكَلَامُ صِدْقًا. وسيأتي مزيد تحرير لها.

(٥) المعجم الوسيط، ١/٢١٣.

(٦) تاج العروس، ٣٧/٥١١-٥١٢.

(٧) الموسوعة الفقهية، ١٨/٢٥٩.

المطلب الثاني : تعريفه اصطلاحاً :

وردت في تعريفه عبارات كثيرة ولكنها في العموم متقاربة المعنى، وقد جمعتها هنا لأختار منها حداً جامعاً مانعاً كما سيأتي:

قال الرَّاعِبُ: الحياءُ: هو انقباضُ النَّفْسِ عن القَبَائِحِ^(١).

وقيل الحياء: هو انقباض النفس عن القبيح وتركه لذلك، ومن القبيح حياء انقبضت نفسه و من الرجل احتشم فهو حيي^(٢).

وقيل: هو انفعال النفس وتألمها من النقص والقبيح بغريزة حب الكمال.

وقيل: أنه انكسار وتغير في النفس يلم بها إذا نسب إليها أو عرض لها فعل تعتقد قبحه، فيقال: استحيا من عمل كذا. أي انفعلت نفسه وتألمت حين عرض عليه أن يفعله فرآه شيئاً ناقصاً.

وقيل الحياء: هو تغير وانكسار يعتري ويصيب النفس بسبب فعل مذموم أو الوقوع في قبيح، أو خوف ما يُعاب.

وعرفه ابن حجر - رحمه الله - بقوله: " هو خلق يبعث على اجتناب القبيح، ويمنع من التقصير في حق ذي الحق"^(٣).

وقد يطلق الحياء على مجرد ترك الشيء بسبب، والترك إنما هو من لوازمه^(٤).

وعرفه أبو القاسم الجنيد رحمه الله فقال: (الحياء رؤية الآلاء أي النعم ورؤية التقصير فيتولد بينهما حالة تسمى الحياء)^(٥).

وجاء في الموسوعة الفقهية: وفي الشرع: خُلِقَ يَبْعَثُ عَلَى اجْتِنَابِ الْقَبِيحِ مِنَ الْأَفْعَالِ وَالْأَقْوَالِ، وَيُمْنَعُ مِنَ التَّقْصِيرِ فِي حَقِّ ذِي الْحَقِّ^(٦).

والتعريف المختار للحياء، وهو المشتهر، أن يقال: هو الخلق الذي يبعث ويحمل على ترك القبيح من الصفات والأفعال والأقوال، ويمنع من التقصير في حق الله المتفضل المنعم سبحانه، والتقصير في حق ذي الحق. حيث أنه شامل وحادث وكما يقول المناطقية: (جامع مانع) لما نريد تناوله في هذا البحث المتواضع؛ لأن حامله إذا تعرض عنه وعطل من التحلي به فلا تسل عما سيتصرفه من رذائل ولا تعجب مما سيرتكبه من

وانظر: مشارق الأنوار، ٢١٨/١، والنهاية في غريب الأثر، ٤٧٠/١، والمصباح المنير، ١٦٠/١، ومشارق الأنوار، ٢١٨/١، ومختار الصحاح، ٦٩/١، وتهذيب اللغة، ١٨٩/٥، ولسان العرب، ٢١٧/١٤.

(١) تاج العروس، ٥١١/٣٧-٥١٢.

(٢) المعجم الوسيط، ٢١٣/١، المفردات في غريب القرآن، ١٤٠/١.

(٣) فتح الباري، ٥٢/١.

(٤) فتح الباري، ٥٢/١.

(٥) شرح النووي على صحيح مسلم، ٥/٢.

(٦) الموسوعة الفقهية، ٢٥٩/١٨.

حماقات ، كما قال النبي صلى الله عليه وسلم: (إن مما أدرك الناس من كلام النبوة الأولى: إذا لم تستح فاصنع ما شئت)، وسيأتي تخريجه. فأصحاب الفطر السليمة يغشاهم الحياء، ويتخرجون ويكسوهم الخجل من فعل مالا ينبغي فعله، ومن كان هذا ديدنه فهو حيُّ الضمير، زكي العنصر، نقيُّ المعدن. فالحياء هنا أشبه بحجر كبير يعترض دربك حينما تهم النفس الأمانة بالسوء بالمشي في أحوال كل ما هو قبيح وذميم ومرفوض وبذيء.

المبحث الثاني : العلاقة بين المعنيين اللغوي والاصطلاحي ، وسبب تسميته بالحياء :

كما سبق في التعريف اللغوي للحياء أن أصله من (حيي) بمعنى: أصيبت حياته، وقالوا: حيي بمعنى: أصيبت حياته، ومسي: بمعنى أصيب مساه؛ فإذا كنّا من الخصائص الحيوية أن الإنسان عندما يقع في أمرٍ ما يشعر بأنها تأخذه في الانزواء بسبب هذه الإصابة التي تؤدي به إلى الاستحياء من الغير. قال الإمام الواحدي: (قال أهل اللغة: الاستحياء من الحياة ، واستحيا الرجل من قوة الحياة فيه لشدة علمه بمواقع الغيب. قال: فالحياء من قوة الحسّ ولطفه وقرّة الحياة)^(١).

سبب تسمية الخلق بالحياء:

سُمي الحياءُ باسم الحياءِ من الاستحياء؛ لأنه يُستَرُّ من الآدمي ويكتنّى عنه من الحيوان، ويستفحش التصريح بذكره واسمه الموضوع له، ويستحي من ذلك، ويكنى عنه، ولذا سُمي حياءً لهذا المعنى^(٢). قال ابن القيم-رحمه الله-: (الحياء مشتق من الحياة فإن القلب الحي يكون صاحبه حيا فيه حياء يمنع عن القبائح فإن حياة القلب هي المانعة من القبائح التي تفسد القلب؛ ولهذا قال النبي صلى الله عليه وسلم: (الحياء من الإيمان)^(٣)، وقال: (الحياء والعِي شعبتان من الإيمان والبذاء والبيان شعبتان من النفاق)^(٤). فإن الحي يدفع ما يؤذيه بخلاف الميت الذي لا حياة فيه فإنه يسمى وقحاً، والوقاحة: الصلابة: وهو ليس المخالف للرطوبة والحياة، فإذا كان وقحاً يابساً، صلب الوجه، لم يكن في قلبه حياة توجب حياء وامتناعه من القبح كالأرض اليابسة لا يؤثر فيه وطء الأقدام بخلاف الأرض الخضرة؛ ولهذا كان الحي يظهر عليه التأثير بالقبح وله إرادة تمنعه عن فعل القبيح بخلاف الوقح والذي ليس بحيي فإنه لا حياء معه ولا إيمان يزجره عن ذلك فالقلب إذا كان حياً فمات الإنسان بفراق روحه بدنه، كان موت النفس فراقها للبدن ليست هي في نفسها ميتة بمعنى زوال حياتها عنها)^(٥).

(١) شرح النووي على صحيح مسلم ، ٥/٢ .

(٢) انظر : تهذيب اللغة ، ١٨٩/٥ ، لسان العرب ، ٢١٧/١٤ ، المعجم الوسيط ، ٢١٣/١ .

(٣) سيأتي تخريجه .

(٤) سيأتي تخريجه .

(٥) أمراض القلوب ، ١٣/١ .

الفصل الثاني

منزلة الحياء في الشريعة الإسلامية.

الحياء خلق عظيم جاء به الشرع، وهو من الأخلاق الرفيعة التي أمر بها الإسلام، وأقرها، ورغب فيها. لذلك قال عليه الصلاة والسلام: (إِنَّ لِكُلِّ دِينٍ خُلُقًا وَخُلُقُ الْإِسْلَامِ الْحَيَاءُ) ^(١). واتصف به النبي صلى الله عليه وسلم الموصوف بمكارم الأخلاق، كما قال عز وجل: ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾ ^(٢)، وقد أمرنا الله باتباع هديه، والسير على سنته، كما قال الله تعالى: ﴿لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُوا اللَّهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ وَذَكَرَ اللَّهَ كَثِيرًا﴾ ^(٣)، فلنا في الرسول صلى الله عليه وسلم أسوة حسنة، فقد قال أبو سعيد الخدري رضي الله عنه: (كَانَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: أَشَدَّ حَيَاءً مِنْ الْعُذْرَاءِ فِي خِدْرِهَا، فَإِذَا رَأَى شَيْئًا يَكْرَهُهُ عَرَفْنَاهُ فِي وَجْهِهِ). متفق عليه ^(٤).

بل لمكانة الحياء في الشريعة الإسلامية كان قرين الإيمان مما يُشعر بعظمته، فعن عبدالله بن عمر رضي الله عنهما قال: قال رسول الله -صلى الله عليه وسلم-: (الْحَيَاءُ وَالْإِيمَانُ قُرْنَا جَمِيعًا، فَإِذَا رُفِعَ أَحَدُهُمَا رُفِعَ الْآخَرُ) ^(٥).

و لقد جعله النبي صلى الله عليه وسلم جزءاً من الإيمان لا يتم إلا به، فعن أبي بكره -رضي الله عنه- قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (الْحَيَاءُ مِنَ الْإِيمَانِ، وَالْإِيمَانُ فِي الْجَنَّةِ، وَالْبَدَأَةُ مِنَ الْجَفَاءِ وَالْجَفَاءُ فِي النَّارِ) ^(٦).

والبَدْءَةُ لُعَّةٌ: السَّفَاهَةُ وَالْفُحْشُ فِي الْمَنْطِقِ وَإِنْ كَانَ الْكَلَامُ صِدْقًا، فَجَعَلَ الْبَدَأَةَ مُقَابِلَةً لِلْحَيَاءِ. وَقَرِيبٌ مِنَ الْبَدَأَةِ الْفُحْشُ وَقَدْ جَاءَ فِي الْحَدِيثِ قَوْلُهُ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: (مَا كَانَ الْفُحْشُ فِي شَيْءٍ إِلَّا شَأْنُهُ وَمَا كَانَ الْحَيَاءُ فِي شَيْءٍ إِلَّا زَانَهُ) ^(١).

(١) رواه ابن ماجه ١٣٩٩/٢، برقم (٤١٨٢)، كتاب الزهد، باب الحياء، ومالك في الموطأ ٩٠٥/٢، برقم (١٦١٠)، كتاب حسن الخلق، باب ماجاء في الحياء، ونحوه مارواه الطبراني في الكبير ٣٢٠/١٠، برقم (١٠٧٨٠).

(٢) سورة القلم، آية ٤.

(٣) سورة الأحزاب، آية ٢٣.

(٤) رواه البخاري ٢٢٦٣/٥، برقم (٥٧٥١)، كتاب الأدب، باب من لم يواجه الناس بالعتاب. ومسلم ١٨٠٩/٤، برقم (٢٣٢٠)، كتاب الفضائل، باب كثرة حياته صلى الله عليه وسلم.

(٥) رواه الحاكم في مستدركه ٧٣/١، برقم (٥٨)، ورواه ابن أبي شيبة موقوفاً على ابن عمر ٢١٣/٥، برقم (٢٥٣٥٠).

وفي رواية عن ابن عباس: (فإذا انتزع أحدهما من العبد اتبعه الآخر). رواه البيهقي في شعب الإيمان ١٤٠/٦، برقم (٧٧٢٥). وفي رواية عنه: (فإذا سلب أحدهما تبعه الآخر). رواه البيهقي في شعب الإيمان ١٤٠/٦، برقم (٧٧٢٦)، في الرابع والخمسون من شعب الإيمان: وهو باب الحياء بفصوله. وفي إسنادهما ضعف.

(٦) رواه ابن ماجه ١٤٠٠/٢، برقم (٤١٨٤)، كتاب الزهد، باب الحياء، وابن حبان في صحيحه ٣٧٤/٢، برقم (٦٠٩) من رواية أبي هريرة، كتاب الرقاق، باب الحياء، في ذكر الإخبار عما يجب على المرء من لزوم الحياء عند تزيين الشيطان له ارتكاب ما زجر عنه.

فالحياء وإن كان في الغرائز والطباع إلا أنه من خصال الإيمان، ومما يمنع ما يمنع منه الإيمان^(٢). وعن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: (الْإِيمَانُ بَضْعٌ وَسَبْعُونَ شُعْبَةً وَالْحَيَاءُ شُعْبَةٌ مِنْ الْإِيمَانِ)^(٣).

والسر في كون الحياء من الإيمان: أنَّ كلاً منهما داع إلى الخير مُقرب منه صارف عن الشر مُبعد عنه، فالإيمان يبعث المؤمن على فعل الطاعات وترك المعاصي والمنكرات. والحياء يمنع صاحبه من التفريط في حق الرب والتقصير في شكره. ويمنع صاحبه كذلك من فعل القبيح أو قوله اتقاء الذم والملامة. وجعل الحياء وهو غريزة من الإيمان وهو اكتساب؛ لأن المستحي ينقطع بحجائه عن المعاصي وإن تكن له تقية فصار الإيمان الذي يقطع بينها وبينه وإنما جعله بعضه لأن الإيمان ينقسم إلى ائتمار بما أمر الله به وانتهاء عما نهى الله عنه فإذا حصل الانتهاء بالحياء كان بعض الإيمان^(٤).

ورب قبيحة ما حال بيني وبين ركوها إلا الحياء

وذكر ابن عبد البر عن سليمان عليه السلام قومه: (الحياء نظام الإيمان فإذا انحل النظام ذهب ما فيه)^(٥). ولذا فإن المسلم عفيفٌ حيي، والحياء خلق له، والحياء من الإيمان، والإيمان عقيدة المسلم وقوام حياته.

وقد جعل الحياء بعض الإيمان لأن الإيمان ينقسم إلى ائتمار بما أمر الله به وانتهاء عما نهى الله عنه فإذا حصل الانتهاء بالحياء كان بعض الإيمان^(٦).

يقول الطحاوي في العلاقة بين الإيمان والحياء -لما سئل عن ذلك-: (أَنَا وَجَدْنَا الْحَيَاءَ يَقْطَعُ صَاحِبَهُ عَنْ رُكُوبِ الْمَعَاصِي أَقْوَالًا وَأَفْعَالًا كَمَا يَقْطَعُ الْإِيمَانُ أَهْلَهُ عَنْ مِثْلِ ذَلِكَ، وَإِذَا كَانَ الْحَيَاءُ وَالْإِيمَانُ فِيمَا ذَكَرْنَا يَعْمَلَانِ عَمَلًا وَاحِدًا كَأَنَّا كَشَيْءٍ وَاحِدٍ وَكَانَ كُلُّ وَاحِدٍ مِنْهُمَا مِنْ صَاحِبِهِ وَكَانَتِ الْعَرَبُ تُقِيمُ الشَّيْءَ مَكَانَ الشَّيْءِ الَّذِي هُوَ مِثْلُهُ أَوْ شَبِيهُهُ)^(٧).

ومن هنا كان الحياء خيراً ولا يأتي إلا بالخير فهو مادة الخير بل الخير كله. لذا قال النبي صلى الله عليه وسلم: (الْحَيَاءُ لَا يَأْتِي إِلَّا بِخَيْرٍ)^(٨).

وقال صلى الله عليه وسلم: (الحياء خير كله)، قال الراوي: أو قال: (الحياء كله خير)^(٩).

(١) الموسوعة الفقهية ٢٦٠/١٨.

(٢) مشارق الأنوار ٢١٨/١، بتصرف.

(٣) رواه مسلم ٦٣/١، برقم (٣٥)، كتاب الإيمان، باب بيان عدد شعب الإيمان وأفضلها وأدناها وفضيلة الحياء وكونه من الإيمان.

(٤) النهاية في غريب الأثر، ٤٧٠/١.

(٥) الآداب الشرعية، ٢١٩/٢.

(٦) المعجم الوسيط، ٢١٣/١.

(٧) مشكل الآثار، ١٩٠/١-١٩١.

(٨) رواه البخاري ٢٢٦٧/٥، برقم (٥٧٦٦) كتاب الأدب، باب الحياء، ومسلم ٦٤/١، برقم (٣٧)، كتاب الإيمان، باب بيان عدد شعب الإيمان وأفضلها وأدناها وفضيلة الحياء وكونه من الإيمان.

(٩) رواه مسلم ٦٤/١، برقم (٣٧)، كتاب الإيمان، باب بيان شعب الإيمان وأفضلها وأدناها وفضيلة الحياء وكونه من الإيمان، وأحمد ٤٤٠/٤، برقم (١٩٩٧١).

قَالَ النَّوَوِيُّ: (وَأَمَّا كَوْنُ الْحَيَاءِ خَيْرًا كُلُّهُ وَلَا يَأْتِي إِلَّا بِخَيْرٍ فَقَدْ يُشْكِلُ عَلَى بَعْضِ النَّاسِ مِنْ حَيْثُ إِنَّ صَاحِبَ الْحَيَاءِ قَدْ يَسْتَحْيِي أَنْ يُوَاجِهَ بِالْحَقِّ مَنْ يُجِلُّهُ فَيَتْرُكُ أَمْرَهُ بِالْمَعْرُوفِ وَنَهْيَهُ عَنِ الْمُنْكَرِ ، وَقَدْ يَحْمِلُهُ الْحَيَاءُ عَلَى الْإِخْلَالِ بِبَعْضِ الْحُقُوقِ وَغَيْرِ ذَلِكَ مِمَّا هُوَ مَعْرُوفٌ فِي الْعَادَةِ ، قَالَ : وَجَوَابُ هَذَا مَا أَجَابَ بِهِ جَمَاعَةٌ مِنَ الْأَئِمَّةِ مِنْهُمْ الشَّيْخُ أَبُو عَمْرٍو بْنُ الصَّلَاحِ رَحِمَهُ اللَّهُ أَنَّ هَذَا الْمَانِعَ الَّذِي ذَكَرْتَاهُ لَيْسَ بِحَيَاءٍ حَقِيقَةٍ بَلْ هُوَ عَجْزٌ وَخَوْرٌ وَمُهَانَةٌ وَإِنَّمَا تَسْمِيَّتُهُ حَيَاءً مِنْ إِطْلَاقِ بَعْضِ أَهْلِ الْعُرْفِ أَطْلَقُوهُ مَجَازًا لِمُشَابَهَتِهِ الْحَيَاءَ الْحَقِيقِيَّ ، وَإِنَّمَا حَقِيقَةُ الْحَيَاءِ خُلِقَ يُبْعَثُ عَلَى تَرْكِ الْقَبِيحِ وَيَمْنَعُ مِنَ التَّقْصِيرِ فِي حَقِّ ذِي الْحَقِّ وَنَحْوِ هَذَا...) ^(١).

فالحياء خلق رفيع يمنع الإنسان عن الاتصاف بالأخلاق الوضيعة، وعن السمعة المشينة، وعن الأقوال الفاحشة، وعن كل ما لا يرضاه الطبع السوي. فإن المرء إذا فقد فعل ما شاء من معاصٍ أو آثام أو سوء خلق، ولم يخشَ في ذلك لوم لائم.

فحقيقة الحياء -كما سبق- أنه خُلِقَ يبعث على ترك القبائح، ويمنع من التفريط في حق صاحب الحق، والحياء يكون بين العبد وبين ربه عز وجل فيستحي العبد من ربه أن يراه على معصيته ومخالفته، وهو أعلى درجات الحياء فيستحي من ربه أن يجده حيث نهاه، وهذا الحياء الذي بين العبد وربّه قد بُيِّنَ في الحديث الذي رَوَاهُ التِّرْمِذِيُّ مِنْ حَدِيثِ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ مَسْعُودٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ مَرْفُوعًا: (اسْتَحْيُوا مِنَ اللَّهِ حَقَّ الْحَيَاءِ . قَالَ : قُلْنَا : إِنَّا نَسْتَحْيِي وَالْحَمْدُ لِلَّهِ ، قَالَ : لَيْسَ ذَاكَ وَلَكِنْ الْإِسْتِحْيَاءُ مِنَ اللَّهِ حَقَّ الْحَيَاءِ أَنْ تَحْفَظَ الرَّأْسَ وَمَا وَعَى ، وَالْبَطْنَ وَمَا حَوَى ، وَتَذْكُرَ الْمَوْتَ وَالْبَلَى ، وَمَنْ أَرَادَ الْآخِرَةَ تَرَكَ زِينَةَ الدُّنْيَا ، فَمَنْ فَعَلَ ذَلِكَ فَقَدْ اسْتَحْيَا مِنَ اللَّهِ حَقَّ الْحَيَاءِ) ^(٢). فقد بيّن في هذا الحديث علامات الحياء من الله عز وجل أنها تكون بحفظ الجوارح عن معاصي الله، وتذكر الموت، وتقدير الأمل في الدنيا، وعدم الانشغال عن الآخرة بملاذ الشهوات والانسحاق وراء الدنيا. وقد كان عباد الله الصالحون من هذه الأمة ينصرفون من الصلاة على إستحياء من الله تعالى حيث هم موقنون بتقصيرهم، وبذلك كانوا من الذين: ﴿وَالَّذِينَ يُؤْتُونَ مَا آتَوْا وَقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ أَنَّهُمْ إِلَى رَبِّهِمْ رَاجِعُونَ﴾ ^(٣). وقد جاء في الحديث الآخر: (فمن استحيى من الله تعالى في الدنيا مما صنع استحيى الله تعالى من تفتيشه و سؤاله و لا يجمع عليه حيائين...) ^(٤).

(١) طرح الشريب ، ١٤٨/٨ - ١٤٩ .

(٢) رواه الترمذي ٦٣٧/٤ ، برقم (٢٤٥٨) ، وابن أبي شيبة في مصنفه ٧٧/٧ ، برقم (٣٤٣٢٠) ، كتاب صفة القيامة والدفائق والورع ، باب . وأحمد ٣٨٧/١ ، برقم (٣٦٧١) ، كتاب الزهد ، باب ما ذكر عن نبيا محمد صلى الله عليه وسلم .

(٣) سورة التوبة ، آية ١٠٣ .

(٤) نوادر الأصول في أحاديث الرسول ، ٤١٨/١ .

وعن سهل بن سعد رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: (اللهم لا يدركني زمان، ولا تدركوا زماناً لا يتبع فيه العليم، ولا يستحي فيه من الحليم، قلوبهم قلوب الأعاجم، وألسنتهم ألسنة العرب) ^(١).

وقد أوصى النبي صلى الله عليه وسلم رجلاً بعد أن طلب منه الوصية، فقال: (استح الله، كما تستحي رجلاً صالحاً من قومك) ^(٢).

قَالَ الْعُلَمَاءُ: الْحَيَاءُ مِنَ الْحَيَاةِ، وَعَلَى حَسَبِ حَيَاةِ الْقَلْبِ يَكُونُ فِيهِ قُوَّةُ خُلُقِ الْحَيَاءِ، وَقِلَّةُ الْحَيَاءِ مِنْ مَوْتِ الْقَلْبِ وَالرُّوحِ، وَأَوَّلَى الْحَيَاءِ: الْحَيَاءُ مِنَ اللَّهِ، وَالْحَيَاءُ مِنْهُ أَلَّا يَرَاكَ حَيْثُ نَهَاكَ، وَيَكُونُ ذَلِكَ عَنْ مَعْرِفَةٍ وَمُرَاقَبَةٍ، وَهُوَ مَعْنَى قَوْلِهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كَمَا فِي حَدِيثِ جَبْرِيلَ الطَّوِيلِ لَمَّا سَأَلَهُ عَنِ الْإِحْسَانِ: (الْإِحْسَانُ: أَنْ تَعْبُدَ اللَّهَ كَأَنَّكَ تَرَاهُ فَإِنْ لَمْ تَكُنْ تَرَاهُ فَإِنَّهُ يَرَاكَ) ^(٣). فهذا الحياء من أعلى خصال الإيمان، بل هو من أعلى درجات الإحسان

فالحياء ملازم للعبد المؤمن كالظل لصاحبه، لأنه جزء من عقيدته وإيمانه، فعن عبد الله بن عمر أن النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مَرَّ عَلَى رَجُلٍ يَعِظُ أَخَاهُ فِي الْحَيَاءِ [أي: يعاتبه فيه لأنه أضرب به]، فَقَالَ لَهُ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: (دَعْنِي فَإِنَّ الْحَيَاءَ مِنَ الْإِيمَانِ) ^(٤). فقد أمر الرسول ذلك الرجل أن يترك أخاه ويبقيه على حيائه ولو ترتب عليه أن منع صاحبه من استيفاء حقوقه. إذ ضياع حقوق المرء خير له من أن يفقد حيائه الذي هو من إيمانه وميزة إنسانيته وخيريته. فالرجل كان يعظ أخاه أن يترك الخجل؛ لأنه كان يتصور أن الخجل يفقد الإنسان كثيراً من الحقوق. وهنا ينهاه رسول الله صلى الله عليه وسلم عن هذا التصور للحياء، بل جعل الحياء جزءاً من الإيمان. فالذي يستحي من الناس لا بد أن يكون مبتعداً عما يذم من قبيح الخصال وسيء الأعمال والأفعال، فلا يكون سبباً، ولا غمماً أو مغتاباً، ولا يكون فاحشاً ولا متفحشاً، ولا يجاهر بمعصية، ولا يتظاهر بقبيح. فحيأؤه من الله يمنعه من فساد الباطن، وحيأؤه من الناس يمنعه من ارتكاب القبيح والأخلاق الدنيئة؛ ومن لم يستح سقط، وصار كأنه لا إيمان له. كما روى شعبة عن منصور بن ربيعي عن أبي منصور البصري قال: قال النبي صلى الله عليه وسلم: (إِنَّ مِمَّا أَدْرَكَ النَّاسُ مِنْ كَلَامِ النَّبِيِّ الْأَوَّلَى: إِذَا لَمْ تَسْتَحْ فَاصْنَعْ مَا شِئْتَ) ^(٥). والحديث لفظه أمرٌ ومعناه توبيخٌ وتهديدٌ. وهذا الحديث له تأويلان: أحدهما: المشهور: أي إذا لم تستحي من العيب، ولم تخش العار مما تفعله فافعل ما تُحدثك به نفسك من أغراضها حسناً كان أو قبيحاً، ولفظه أمر، ومعناه توبيخٌ وتهديد، وفيه إشعار بأن الذي يردع الإنسان عن موقعة السوء هو الحياء، فإذا انخلع منه كان كالمأمور بارتكاب كل ضلالة وتعاطي كل سيئة.

(١) رواه الإمام أحمد، ٣٤٠/٥، برقم (٢٢٩٣٠).

(٢) آداب الصلوة ٥٠/١، برقم (٢٥)، تاريخ واسط ٢٠٩/١.

(٣) متفق عليه، البخاري، ٢٧/١، برقم (٥٠) كتاب الإيمان، باب سؤال جبريل النبي صلى الله عليه وسلم من الإيمان والإسلام والإحسان وعلم الساعة وبيان النبي صلى الله عليه وسلم له، ومسلم، ٣٩/١، برقم (٩)، كتاب الإيمان، باب بيان الإيمان والإسلام والإحسان، ووجوب الإيمان بإثبات من الله سبحانه وتعالى وبيان الدليل على الثبوت لا يؤمن بالقدر وإغلاظ القول في حقه .

(٤) رواه البخاري، ١٧/١، برقم (٢٤)، كتاب الإيمان، باب الحياء من الإيمان .

(٥) رواه البخاري ١٢٨٤/٣، برقم (٣٢٩٦)، كتاب الأدب، باب إذا لم تستح فاصنع ما شئت . وابن ماجه ١٤٠٠/٢، برقم (٤١٨٣)، كتاب الزهد، باب الحياء . المعجم الوسيط ٢١٣/١.

والثاني: أن يُحْمَل الأمر على بابه، يقول: إذا كنت في فعلك آمناً أن تَسْتَحْيِي منه لجريك فيه على سَنَنِ الصواب، وليس من الأفعال التي يُسْتَحْيَا منها فاصنع ما شئت^(١).

قال أبو عبيد: قال جرير: فمعناه أن يريد الرجل أن يعمل الخير فيدعه حياء من الناس، كأنه يخاف مذهب الرياء، يقول: فلا يمتنعك الحياء من المضي لما أردت.

قال أبو عبيد: والذي ذهب إليه جرير معنى صحيح في مذهبه، وهو شبيه بالحديث الآخر: (إذا جاءك الشيطان وأنت تصلي، فقال: إنك ترائي فزدها طولاً).

وفي هذا أحاديث والمعنى قائم فيه ولكن الحديث الأول لا يأتي سياقه ولا لفظه على هذا التفسير ولا يُحْمَل عليه، وإنما وجهه أبو عبيد: بأنه أراد بقوله إنما هو من لم يستحي صنع ما شاء على جهة الذم، لترك الحياء، ولم يُرَدِّ بقوله: (فاصنع ما شئت)، أن يأمره بذلك أمراً. وهذا جائز في كلام العرب أن يقول: افعل كذا وكذا، وليس بأمر، ولكنه أمر فيه معنى الخبر، كقول النبي صلى الله عليه وسلم: (من كذب علي متعمداً فليتبوأ مقعده من النار)، فليس معناه: أنه يأمره بذلك، إنما معناه: من كذب علي متعمداً تبوأ مقعده من النار أي: كان له مقعد من النار، فهي لفظة أمر على معنى الخبر وتأويل الجزاء. فيراد من الحديث أنه يحث على الحياء، ويأمر به، ويعيب تركه^(٢).

قال الإمام الماوردي: (واختلف أهل العلم في معنى هذا الخبر:

• فقال أبو بكر بن محمد الشاشي - في أصول الفقه -: معنى هذا الحديث: أن من لم يستحي دعاه ترك الحياء إلى أن يعمل ما يشاء لا يردعه عنه رادع، فليستحي المرء فإن الحياء يردعه.

وقال أبو بكر الرازي - من أصحاب أبي حنيفة -: أن المعنى فيه: إذا عُرِضَ عليك أفعالك التي هممت بفعلها فلم تستحي منها؛ لحسنها، وجمالها، فاصنع ما شئت منها. فجعل الحياء حكماً على أفعاله.

وكلا القولين حسنٌ والأول أشبه؛ لأنَّ الكلام خرج من النبي صلى الله عليه وسلم مخرج الذم لا مخرج المدح، ولكن قد جاء أثر بما يضاهي الثاني وهو: (ما أحببت أن تسمعه أذنك فأته، وما كرهت أن تسمعه أذنك فاجتنبه)^(٣). ويجوز أن يُحْمَل هذا الحديث على المعنى الصريح فيه، ويكون التأويل الأول في الحديث المتقدم أصح، إذ ليس يلزم أن تكون أحاديث رسول الله صلى الله عليه وسلم كلها متفقة المعاني، بل اختلاف معانيها أدخل في الحكمة، وأبلغ في الفصاحة إذا لم يضاد بعضها بعضاً^(٤).

فمن هذا كله يتبين لنا أن الحياء من أخلاق الإسلام العظام، التي حثَّ عليها، ورغبَّ فيها. فهو جزءٌ من الإيمان الكامل، لا يتم إلا به، وصاحبه مقتدٍ بالنبي صلى الله عليه وسلم، وأصحابه الكرام، وأهل القرون المفضلة من سلف الأمة الصالح^(٥).

وسأتي - بإذن الله - مزيد كلام حول هذا الموضوع في ثنايا البحث.

(١) النهاية في غريب الأثر، ٤٧٠/١ - ٤٧١، "بتصرف".

(٢) غريب الحديث، ٣٢-٣١/٣، "بتصرف".

(٣) لم أجد له أصلاً ولكنه ورد في مجمع الأمثال، ٤١١/٢.

(٤) أدب الدنيا والدين، ص ٢٤٩. وانظر: مشكل الآثار، ١٩٨-١٩٩.

(٥) وانظر: الموسوعة الفقهية، ٢٦٠/١٨ - ٢٦١ - ٢٦٢، و بناء الأخلاق، ص ٦٣-٦٥.

الفصل الثالث

بين الحياء والأخلاق

فإنَّ مما تختص به الأخلاق الإسلامية، تداخلها مع أصدادها نتيجة للتوسع في استخدام لفظ الخلق، وقد يكون التوسع المقصود فعلياً، ويكون بما لُغاة الإنسان بالتحلق به مما يؤدي إلى أصداده، ولم يسلم الحياء من هذا، بل قد كان له قسَمُ السبق في ذلك، ورأيت أنَّ من الأهمية بمكان أن لا يُغفل مثل هذا الموضوع، فتناولته بشيء من الاستحياء، وقسمتُ هذا الفصل على مبحثين:

المبحث الأول: بين الحياء والخجل:

لا بد ابتداءً من التفريق بين الحياء والخجل -وقد سبق شيء من ذلك-، وقد سبق تعريف الحياء، وذكرت أنَّها صفة لازمة للإنسان المسلم.

أما الخجل: فهي الصورة المتطرفة و المذمومة للحياء. ويمكن تعريفه بأنه: حيرة النفس؛ لفرط الحياء. ويُحمد في النساء والصبيان ويُذمُّ باتفاق في الرجال^(١).

قال أبو هلال العسكري: (الفرق بين الخجل والحياء:

أنَّ الخجلَ معنى يَظْهَرُ فِي الْوَجْهِ لِعَمِّ يَلْحَقُ الْقَلْبَ عِنْدَ ذَهَابِ حُجَّةٍ، أَوْ ظُهُورِ عَلَى رِيَّةٍ وَمَا أَشْبَهَ ذَلِكَ فَهُوَ شَيْءٌ تَتَغَيَّرُ بِهِ الْهَيْئَةُ، وَالْحَيَاءُ هُوَ الْارْتِدَاعُ بِقُوَّةِ الْحَيَاءِ، وَلِهَذَا يُقَالُ فُلَانٌ يَسْتَحِي فِي هَذَا الْحَالِ أَنْ يَفْعَلَ كَذَا، وَلَا يُقَالُ يَخْجَلُ أَنْ يَفْعَلَهُ فِي هَذِهِ الْحَالِ، لِأَنَّ هَيْئَتَهُ لَا تَتَغَيَّرُ مِنْهُ قَبْلَ أَنْ يَفْعَلَهُ، فَالْخَجَلُ مِمَّا كَانَ وَالْحَيَاءُ مِمَّا يَكُونُ، وَقَدْ يُسْتَعْمَلُ الْحَيَاءُ مَوْضِعَ الْخَجَلِ تَوْسُّعًا. وَقَالَ الْأَنْبَارِيُّ: أَصْلُ الْخَجَلِ فِي اللَّغَةِ: الْكَسَلُ وَالتَّوَانِي وَقِلَّةُ الْحَرَكَةِ فِي طَلَبِ الرِّزْقِ ثُمَّ كَثُرَ اسْتِعْمَالُ الْعَرَبِ لَهُ حَتَّى أَخْرَجُوهُ عَلَى مَعْنَى الْإِنْقِطَاعِ فِي الْكَلَامِ، وَفِي الْحَدِيثِ: (إِذَا جُعِنْتَ وَدَقَعْتَ^(٢) وَإِذَا شَبِعْتَ خَجَلْتَنَ)^(٣).

وَقَعْتَنَ أَيُّ ذَلِكَ وَخَجَلْتَنَ كَسَلْتَنَ، وَقَالَ أَبُو عُبَيْدَةَ: الْخَجَلُ هَاهُنَا الْأَشْرُ، وَقِيلَ: هُوَ سُوءُ احْتِمَالِ الْعَنَاءِ، وَقَدْ جَاءَ عَنِ الْعَرَبِ الْخَجَلُ بِمَعْنَى الدَّهْشِ. قَالَ الْكُمَيْتُ: فَلَمْ يَدْفَعُوا عِنْدَنَا مَا لَهُمْ لَوْ قَعِ الْحُرُوبِ وَلَمْ يَخْجَلُوا. أَيُّ لَمْ يَنْقُضُوا دَهْشِينَ مَبْهُوتِينَ^(٤) هـ.

وجاء في الموسوعة الفقهية: (الْخَجَلُ: وَهُوَ: الْإِسْتِرْحَاءُ مِنَ الْحَيَاءِ، وَيَكُونُ مِنَ الدُّلِّ، يُقَالُ: بِهِ خَجَلَةٌ أَيُّ حَيَاءٌ، وَهُوَ التَّحِيرُ وَالِدَّهْشُ مِنَ الْإِسْتِحْيَاءِ. يُقَالُ: خَجَلَ الرَّجُلُ خَجَلًا: فَعَلَ فَعْلًا فَاسْتَحَى مِنْهُ)^(٥).

(١) فيض القدير، ٤٢٦/٣.

(٢) دَقَعْتَ: الدَّقْعُ الخَضْعُ فِي طَلَبِ الْحَاجَةِ، مَأْخُذٌ مِنَ الدَّقْعَاءِ: وَهُوَ التَّرَابُ، أَيُّ: لَصَقْتَ بِهِ. النِّهَايَةُ (١٢٧/٢).

(٣) كثر العمال ١٦١/٦، برقم (١٦١٣٦) عن عائشة. وقال: أراد بالخجل: الكسل والتواني؛ لأن الخجل يسكت ويسكن ولا يتحرك وقيل: الخجل ههنا: الأشر والبطر من خجل الوادي إذا كثر نباته وعشبه. النِّهَايَةُ (١٢/٢).

ابن الأنباري في كتاب الأصداد عن منصور بن المعتمر مراسلاً أي أخرجه.

(٤) الفرق، ٢٦٨/١ - ٢٨٩.

(٥) الموسوعة الفقهية، ٢٥٩/١٨ - ٢٦٠.

وقال الزبيدي: (وَفَرَّقَ بَعْضُهُمْ بَيْنَ الْخَجَلِ وَالْحَيَاءِ وَقَالَ إِنَّ الْخَجَلَ أَحْصَى مِنَ الْحَيَاءِ فَإِنَّهُ لَا يَكُونُ إِلَّا بَعْدَ صُدُورِ أَمْرٍ زَائِدٍ لَا يُرِيدُهُ الْقَائِمُ بِهِ بِخِلَافِ الْحَيَاءِ فَإِنَّهُ قَدْ يَكُونُ لِمَا لَمْ يَقَعْ فِيهِ فَيَتْرُكُ لِأَجْلِهِ نَقْلَهُ شَيْخُنَا قُلْتُ وَهُوَ مَفْهُومٌ عِبَارَةُ الْأَزْهَرِيِّ فَتَأَمَّلْ) هـ^(١).

قال ابن حجر-رحمه الله-: (وقد تقدم أن الحياء من الإيمان وهو الشرعي الذي يقع على وجه الاجلال والاحترام للأكابر وهو محمود وأما ما يقع سببا لترك أمر شرعي فهو مذموم وليس هو بحياء شرعي وإنما هو ضعف ومهانة...) ^(٢). ويريد بالمذموم الخجل.

قال ابن مفلح-رحمه الله-: (وَإِنْ حَمَلَ شَيْءٌ عَلَى تَرْكِ الْأَمْرِ وَالنَّهْيِ وَالْإِخْلَالِ بِحَقِّ فَهُوَ عَجْزٌ وَمَهَانَةٌ، وَتَسْمِيَّتُهُ حَيَاءً مَجَازًا. وَحَقِيقَةُ الْحَيَاءِ خَلْقٌ يَبْعَثُ عَلَى فِعْلِ الْحَسَنِ وَتَرْكِ الْقَبِيحِ وَاللَّهُ أَعْلَمُ) ^(٣).

قال القرافي في قَاعِدَةِ التَّفْضِيلِ بِالتَّأْتِيرِ: (وَلَهُ أَمْثَلَةٌ)، وذكر منها: (تَفْضِيلُ صَاحِبِ الشَّرْعِ الْحَيَاءِ عَلَى ضِدِّهِ وَهُوَ الْقِحَّةُ فَقَالَ الْحَيَاءُ خَيْرٌ كُلُّهُ الْحَيَاءُ لَا يَأْتِي إِلَّا بِخَيْرٍ الْحَيَاءُ مِنَ الْإِيمَانِ بِسَبَبِ أَنَّ الْحَيَاءَ يُؤْتِرُ الْحَثَّ عَلَى الْخَيْرَاتِ وَالزَّجَرَ عَنِ الْمُتَكْرَاتِ، وَالْقِحَّةُ لَا يَنْزَجِرُ صَاحِبُهَا عَنْ مَكْرُوهِ وَلَا تَحْتَهُ عَلَى مَعْرُوفٍ) ^(٤).

وترجع أسباب الخجل إلى مخاوف مكبوتة في أعماق النفس؛ بتأثير التربية القاسية التي تحيط بالطفل أحيانا، والحماية الزائدة عن حدها أحيانا أخرى!، مما يجعل الإنسان فيما بعد يتهيّب المجتمع، ويخاف الآخرين، ويتجنبهم!.. وهو ما يسمى اجتماعياً بالخجل.

ولعلاجه: فهذه نصائح عاجلة:

١. كن أكثر ثقة بنفسك وشخصيتك .
٢. عند مواجهة الآخرين في أي موقف كان لا تشغل كثيراً بنفسك بل انتبه للموقف ذاته.
٣. نجحك في العمل -أيأ كان- يخفف كثيراً من حدة الحساسية والخجل؛ لأنه يجعلك موضع إعجاب الآخرين. فأتقن عملك وانجح فيه، واندمج وتفاعل مع الآخرين بقدر المستطاع.
٤. تأكد أن من تشعر بالخجل في حضرتهم لزيادة حساسيتك بنفسك ربما لا يفكرون فيك أبداً. بل ربما كانوا يفكرون مثلك في أنفسهم!! ^(٥).

المبحث الثاني: بين الحياء والرياء:

إنَّ الله عز وجل جبل الإنسان على أوصاف جالبة للنفع، وعلى أوصاف دافعة للضرر، فخلق الحياء لجلب النفع ودفع الضرر جميعاً، فيحمل الحياء العبد على فعل ما يستحي من تركه وترك ما يستحي من فعله، فقد جمع من الخير ما تفرق في غيره؛ ولذلك قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (الحياء من الإيمان) فشبهه بالإيمان؛ لاستوائيهما في الحث على كل حسن، والزجر عن كل قبيح.

(١) تاج العروس ٣٩٦/٢٨ .

(٢) فتح الباري ٢٢٩/١ .

(٣) الآداب الشرعية ٢١٩/٢ .

(٤) أنوار البروق ٢٢٤/٢ .

(٥) بتصرف نقلاً عن كتاب: مشاكلنا النفسية، تأليف: معروف زريق، بواسطة مقال في الشبكة.

والإنسان قد يفعل البر حياء وقد يفعله رياء.

وما يفعله الإنسان حياءً: مثل أن يسأل شيئاً من أنواع البر فيدفعه حياء من السائل أن يمنعه، فله أربعة أحوال:

١. أن يدفعه رياء: فهذا مذموم لأنه قدم الحياء من الخلق على الحياء من الله سبحانه وتعالى.
 ٢. أن يفعله إخلاصاً وحياء: فهذا ممدوح مأجور لأنه استعمل الحياء في موضع ينبغي أن يستعمل الحياء فيه.
 ٣. أن يتردد بين كونه مرئياً أو كونه مستحياً: فلا يقضى بإثم ولا بكونه مخلصاً لأننا لا نتحقق إخلاصه فيكون مأجوراً ولا نتحقق رياءه فيكون مأزوراً.
 ٤. أن يعلم أنه فعله حياء من غير إخلاص ولا رياء: فهذا محمود لا مأجور ولا مأزور، ومثل هذا عزيز الوجود فيفعل العبد فعلاً لا لغرض.
- ومن أمثلة ترك البر حياء: أن يرى إنساناً قد ألم بذنب يجب الإنكار عليه، فيترك الإنكار عليه؛ حياء من شيبته ووقاره، فهذا عاص لله تعالى من وجهين:
١. أنه ترك النكير على من يجب عليه الإنكار.
 ٢. أنه قدم استحيائه من ذلك الإنسان على استحيائه من الملك القدير، ولو لاحظ عظمة الله تعالى لم يستح إلا منه، ولكن الغفلة عن ملاحظة العظمة أوجبت له ذلك^(١).

قال الخادمي في أمور مترددة بين الرياء والإخلاص أو بين الرياء والحياء من الله تعالى: (يَدْخُلُ فِي كِلَا الْجَانِبَيْنِ) أي الرياء ومُقابله (تَلَبُّسُ إِبْلِيسَ) فَلْيَكُنِ السَّالِكُ عَلَى بَصِيرَةٍ وَتَيَقُّظٍ^(٢).

قال: وَمِنْ الْأُمُورِ الْمُتَرَدِّدَةِ بَيْنَ الرِّيَاءِ وَالْحَيَاءِ: أَنْ يَمْشِيَ رَجُلٌ عَلَى الْعَجَلَةِ فَيَرَى وَاحِدًا مِنْ ذَوِي الْوَجَاهَةِ وَالْجَاهِ وَالشَّرَفِ فَإِنَّهُ لَا يُغَيِّرُ صَنِيعَهُ فَيَعُودُ إِلَى الْهَدْوِ ، أَوْ يَضْحَكُ فِي خَلْوَتِهِ أَوْ عِنْدَ النَّاسِ الَّذِينَ لَهُمْ مَعَهُ أُلْفَةٌ وَمُؤَانَسَةٌ فَعِنْدَ رُؤْيَا كَبِيرٍ أَوْ غَرِيبٍ تَرُكُ الضَّحِكَ . وَالْأَغْلَبُ فِيهِمَا أَيُّ فِي الْمَشْيِ وَالضَّحِكِ الرِّيَاءُ لِأَنَّ الْحَيَاءَ فِي الْأَكْثَرِ مِنَ الْقَبَائِحِ وَالذُّنُوبِ وَإِنْ كَانَ مِنْ غَيْرِهِمَا عَلَى قَلَّةٍ فَإِنْ قِيلَ الْحَيَاءُ خُلِقَ يَنْعَثُ عَلَى فِعْلِ الْحَمِيلِ وَتَرُكُ الْقَبِيحِ فَلَا يُتَصَوَّرُ فِي غَيْرِهِمَا فَكَيْفَ يُتَصَوَّرُ فِي غَيْرِهِمَا وَلَوْ قَلَّةً فَلَنَا التَّعْرِيفُ عَلَى الْأَعْمِّ وَالْأَغْلَبِ وَيَجُوزُ أَنْ تَكُونَ الْقَبَائِحُ شَامِلَةً لِمَا هِيَ عِبَادِيَّةٌ ثُمَّ نَقُولُ وَشَيْءٌ مِنْهُمَا أَيُّ الْمَشْيِ وَالضَّحِكِ لَيْسَ مِنَ الْقَبَائِحِ وَالذُّنُوبِ فَيَنْتِجُ مِنَ الشَّكْلِ الثَّانِي لَيْسَ فِيهِمَا حَيَاءٌ فِي الْأَكْثَرِ فَإِذَا لَمْ يَكُنْ فِيهِمَا حَيَاءٌ فَمَا فِيهِمَا هُوَ الرِّيَاءُ فِي الْأَغْلَبِ فَيَشْكُلُ أَنْ مَا يُتَصَوَّرُ فِي الْعِبَادَةِ وَشَيْءٌ مِنْهُمَا لَيْسَ مِنَ الْعِبَادَةِ فَتَأَمَّلْ أَوَّلًا وَثَانِيًا.

ومن تلك الأخلاق التي لم يسعُ المقام لذكرها، الحياء والغيرة، وغيره كثير، والله الموفق والهادي إلى سواء السبيل.

(١) انظر: مقاصد الرعاية لحقوق الله عز وجل (١٠٧/١-١٠٩)، فصل في سبب التباس الحياء بالرياء.

(٢) بريقة محمودية ١٣٤/٢.

الفصل الرابع

تقاسيم الحياء

اختلف أهل العلم -رحمهم الله- في تقسيم الحياء، فقسموه بعدة اعتبارات، فكلُّ يُقسَّم بما يظهر له من خلال استقرائه للنصوص، فمن أكثر من الأقسام ومن مُقلٌّ. ولكي رأيتُ ولعدة اعتبارات، ومن خلال الاستقراء رأيت أن أقسّمه وأنوعه إلى أنواعٍ عدة، من خلال الاستنباط من تلك التقاسيم، ورتبتها على مباحث الفصل كما يلي :

المبحث الأول : تقسيمه من حيث الأصل :

فيمكن تقسيم الحياء من حيث الأصل إلى قسمين : -

١. حياءٌ فطري غريزي: وهو الذي يكون جبلياً، موجوداً في أصل الخلقة .
 ٢. حياءٌ مكتسب: قال القرطبي: (الحياء المكتسب: هو الذي جعله الشارع من الإيمان، غير أن من كانت فيه غريزة الحياء فإنها تعينه على المكتسب، وقد يتطبع بالمكتسب حتى يصير غريزياً...). قال غير واحد: (قد يكون الحياء تخلقاً واكتساباً، كسائر أعمال البر. وقد يكون غريزةً واستعماله على مقتضى الشرع يحتاج إلى كسبٍ ونيةٍ وعلمٍ) ^(١).
- وقال القرطبي : (وكان النبي صلى الله عليه وسلم قد جُمع له النوعان من الحياء: المكتسب، والغريزي، وكان في الغريزي أشدَّ حياء من العذراء في خدرها. وكان في المكتسب في الذروة العليا صلى الله عليه وسلم) ^(٢) .

المبحث الثاني : أقسام الحياء :-

وهو أقسام أربعة :

١. الحياء من الله: وهو أعظم الحياء، ويكون بأن لا يقابل العبد إحسان الله ونعمته بالإساءة والكفر والجحود والطغيان ، وأن لا يتضجر عند البلاء فينسى قديم إحسانه ومنته ورحمته به ، وأن يلتزم أوامره سبحانه وتعالى ونواهيه وأن يخاف منه حق الخوف ، ولا يتولد هذا الحياء إلا حين يطالع العبد نِعَمَ الله عليه، ويتفكر فيها، ويدرك تمامها وشمولها، ثم يراجع نفسه بعد ذلك ويحاسبها على الخلل والزلل والتقصير، قال بعض السلف: (خَفَّ الله على قدر قدرته عليك، واستح منه على قدر قربك منك) ^(٣).

(١) الآداب الشرعية ، ٢/ ٢١٩ .

(٢) سبل السلام ، ٤/ ٢٠٦ ، نقلاً عن المفهم شرح مسلم .

(٣) فتح الباري ، ١/ ٧٥ .

قال الله تعالى: ﴿أَلَمْ يَعْلَم بِأَنَّ اللَّهَ يَرَى﴾ ^(١)، وقال تعالى: ﴿وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ﴾ ^(٢)، وقال: ﴿إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا﴾ ^(٣).

فتجرؤ العبد على المعاصي، واستخفافه بالأوامر والنواهي الشرعية يدلُّ على عدم إجلاله لربه وعدم مراقبته له.

قال سهل بن عبدالله: (أول خيانة الصديقين حديثهم مع أنفسهم) ^(٤).

وقال بشر بن الحارث الحافي: (لو تفكر الناس في عظمة الله تعالى لما عصوه) ^(٥).

فيكون الحياء من الله: باتباع الأوامر واجتناب النواهي. قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: {استحيوا من الله حق الحياء} قالوا: يا رسول الله إنا نستحي والحمد لله، قال: {ليس ذلك ولكن من استحيا من الله حق الحياء فليحفظ الرأس وما وعى، وليحفظ البطن وما حوى، وليذكر الموت والبلى، ومن أراد الآخرة ترك زينة الدنيا، فمن فعل ذلك فقد استحيا من الله حق الحياء} ^(٦).

معنى الحديث: (استحيوا من الله حق الحياء) أي: استحيوا من الله قدر استطاعتكم؛ لأنه من المعلوم أنَّ الإنسان لا يستطيع أن يقوم بكل ما عليه تماماً كاملاً، ولكن كلٌّ على حسب طاقته ووسعه، قال تعالى: ﴿فَاتَّقُوا اللَّهَ مَا اسْتَطَعْتُمْ﴾ ^(٧).

(قال قلنا: إنا نستحي والحمد لله): أجابوا بذلك؛ لأنهم قصدوا أنهم يفعلون الحسن، ويتركون القبائح، على حسب استطاعتهم. فردَّ عليهم رسول الله صلى الله عليه وسلم أنَّ المقصود ليس كذلك؛ لأنَّ هناك شروطاً للحياء الحق، وهي كما يلي:

١. {أن يحفظ الرأس وما وعى} أي: ما جَمَعَ من الأعضاء: العقل والبصر والسمع واللسان. قال

تعالى: ﴿إِنَّ السَّمْعَ وَالْبَصَرَ وَالْفُؤَادَ كُلُّ أُولَئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْئُولًا﴾ ^(٨).

٢. {وليحفظ البطن وما حوى} أي يحفظ بطنه، وما يتبعه من حفظ الفرج عن الحرام، فيحفظ بطنه من أن يدخله طعام حرام، أو من مال حرام. فالبدن ينبت ويقوى من الطعام. والرب عز وجل لا يقبل من عبده أن يتقوى على طاعته بمطعم حرام، ولا مشرب حرام؛ لأن الله طيبٌ لا يقبل إلا طيباً.

(١) سورة العلق، آية ١٤ .

(٢) سورة الأنعام، آية ٩١ .

(٣) سورة النساء، آية ١ .

(٤) مدارج السالكين، ٢٧٨/٢ .

(٥) تفسير ابن كثير، ٤٣٩/١ .

(٦) وهذا الحديث من أبلغ الوصايا .

(٧) سورة التغابن، آية ١٦ .

(٨) سورة الإسراء، آية ٣٦ .

٣. { وليذكر الموت والبلى } : أن يذكر الموت دائماً؛ لأن المرء في هذه الدنيا ليس مخلداً ، وإنما سيموت ، وسيقف بين يدي الله تبارك وتعالى. قال النبي صلى الله عليه وسلم: (فأكثرُوا من ذكر هادم اللذات الموت) ^(١) .

٤. { ومن أراد الآخرة ترك زينة الدنيا } ، ويمكن أن يعبر عنه بالزهد : لأنه ترك ما لا ينفع في الآخرة ، قال تعالى: ﴿ تِلْكَ الدَّارُ الْآخِرَةُ نَجْعُهَا لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِي الْأَرْضِ وَلَا فَسَادًا وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ ﴾ ^(٢) .

فالمقصود أن الحياء من الله يكون باتباع أوامر الله واجتناب نواهيه وزواجره، ومراقبة الله في السر والعلن. قال رسول الله -صلى الله عليه وسلم- : (استحي من الله تعالى كما تستحي من الرجل الصالح من قومك) ^(٣) .

ومما يندرج تحت هذا القسم من الأنواع التي ذكرها الإمام ابن القيم - رحمه الله - كما سيأتي حياء العبودية ، وحياء الإجلال . وكذلك كانت حقيقة عبادة رسول الله صلى الله عليه وسلم . ومن هذا الحياء أيضاً: حياء الجنابة والذنوب . ومن أمثلة الحياء من الله:

الحياء من نظر الله إليه في حالة لا تليق: كالتعري كما في حديث بخر بن حكيم عن أبيه عن جده: عندما سأل رسول الله صلى الله عليه وسلم، فقال: (عوراتنا ما نأتي منها وما نذر؟)، فقال: (احفظ عورتك إلا من زوجتك أو ما ملكت يمينك). قال: (يا نبي الله إذا كان أحدنا خالياً؟)، قال: (فإن الله أحق أن يستحي منه الناس) ^(٤) .

(١) سنن رواه الترمذي ٦٣٩/٤ ، برقم (٢٤٦٠) ، كتاب صفة القيامة والرقائق والورع . والطبراني في الأوسط ٢١٣/١ ، برقم (٦٩١) .

(٢) سورة القصص ، آية ٨٣ .

(٣) تاريخ واسط ٢٠٩/١ ، التيسير بشرح الجامع الصغير ٣٨٦/١ ، وأخرجه العراقي في المغني عن حمل الأسفار ١١٨/١ ، برقم (٤٥٥) عن أبي هريرة (١٦٦١) ، وقال: (الخرائطي في مكارم الأخلاق ، والبيهقي في الشعب من حديث سعيد بن زيد مرسل بنحوه ، وأرسله البيهقي بزيادة ابن عمر في السند ، وفي العلل للدارقطني عن ابن عم له وقال: إنه أشبه شيء بالصواب؛ لوروده من حديث سعيد بن زيد - أحد العشرة -) .هـ .

(٤) رواه النسائي في الكبرى ٣١٣/٥ ، برقم (٨٩٧٢) ، كتاب عشرة النساء ، باب في المرأة تبيت مهاجرة لفراش زوجها . وأبو داود ٤٠/٤ ، برقم (٤٠١٧) ، كتاب الحمام ، باب ما جاء في التعري . وابن ماجه ٦١٨/١ ، برقم (١٩٢٠) ، كتاب النكاح ، باب التستر عند الجماع .

أخرجه في كشف الخفاء ٥٩/١ ، (١٤٣) ، وقال:

قوله: (احفظ عورتك إلا من زوجتك أو ما ملكت يمينك) رواه أحمد وأبو داود والترمذي والنسائي وابن ماجه والحاكم والبيهقي عن بخر بن حكيم عن أبيه عن جده . زاد قيل: إذا كان القوم بعضهم في بعض؟ قال: (إن استطعت أن لا يراها أحد فلا تترينها) . قيل: إذا كان أحدنا خالياً؟ قال: (الله أحق أن يستحي منه من الناس) ، وسببه ما رواه معاوية بن حيدة القشيري ، قال: قلت: يا رسول الله عوراتنا ما نأتي منها وما نذر؟ فذكر الحديث . قال: الترمذي والحاكم: صحيح ووافقه الذهبي ورواه البخاري معلقاً .

وأخرجه في نوادر الأصول في أحاديث الرسول ١٢٠/٢ . في باب: الاعتبار بكل شيء والاتعاظ بكل شيء .

وقد ورد أن أبا موسى الأشعري -رضي الله عنه- قال: إني لأدخل البيت المظلم أغتسل فيه من الجنابة فأحني فيه ظهري إذا أخذت ثوبي حياءً من ربي^(١).

وقد قال أبو بكر الصديق رضي الله عنه وهو يخطب الناس: (يا معشر المسلمين استحيوا من الله. فالذي نفسي بيده إني لأظل حين أذهب إلى الغائط في الفضاء مغطي رأسي؛ استحياء من ربي)^(٢). وكان عثمان بن عفان -رضي الله عنه- ليكون في البيت، والباب عليه مغلق، فما يضع عنه الثوب؛ ليفيض عليه الماء؛ يمنعه الحياء أن يقيم صلبه^(٣).

ولقد بلغ الإيمان بسلف الأمة رحمهم الله أنهم أصبحوا يستحيون من الله من التقصير في النوافل، وكأنهم قد ضيعوا الفرائض. قال الفضيل بن عياض: (أدركت أقواماً يستحيون من الله سواد الليل من طول المهجعة، إنما هو على الجنب، فإذا تحرك قال: ليس هذا لك، قومي خذي حظك من الآخرة)^(٤).

فعجيب شأن الإنسان؛ لا يستحي من ربه وهو ينعم عليه آناء الليل وأطراف النهار مع فقره الشديد إليه، والرب العظيم يستحي من عبده مع غناه عنه وعدم حاجته إليه.

ويقول أبو الحسن الماوردي عن نفسه: (رأيت رسول الله صلى الله عليه وسلم في المنام ذات ليلة، فقلت يا رسول الله، أوصني، فقال: استحي من الله عز وجل حق الحياء... ثم قال: تغير الناس. قلت: وكيف ذلك يا رسول الله؟ قال: كنت أنظر إلى الصبي، فأرى من وجهه البشر والحياء، وأنا أنظر إليه اليوم، فلا أرى ذلك في وجهه. ثم تكلم بعد ذلك بوصايا وعظات تصورها، وأذهلني السرور عن حفظها ووددت أني لو حفظتها. فلم يبدأ بشيء صلى الله عليه وسلم قبل الوصية بالحياء من الله عز وجل، وجعل ما سلبه الصبي من البشر والحياء سبباً لتغير الناس، وخصَّ الصبي؛ لأن ما يأتيه بالطبع من غير تكلف)^(٥). ورؤي أن حذيفة بن اليمان -رضي الله عنه- أتى الجمعة فوجد الناس قد انصرفوا فتنكب الطريق عن الناس، وقال: (لا خير فيمن لا يستحي من الناس)^(٦).

٢. الحياء من الملائكة:

فمن المعلوم أن الله قد جعل فينا ملائكة يتعاقبون علينا بالليل والنهار. وهناك ملائكة يصاحبون أهل الطاعات، كالخارج في طلب العلم، والمجتمعين على مجالس الذكر، والزائر للمريض، وغير ذلك.

وأيضاً هناك ملائكة لا يفارقوننا وهم الحفظة والكتابة. ﴿وَإِنَّ عَلَيْكُمْ لَحَافِظِينَ ۖ كَرَامًا كَتِبِينَ﴾^(٧).

فعلى المؤمن إذاً أن يستحي من الملائكة الكرام، فالحياء من الكريم من صفات الكرام، ولا ألام ممن لا يستحيي من الكريم.

(١) وسيأتي تخريجه .

(٢) أخرجه ابن أبي شيبة في مصنفه ، ١٠٠/١ ، برقم (١١٢٧) ، كتاب الطهارة ، باب من كره أن ترى عورته .

(٣) مسند الإمام أحمد ، ٧٣/١ ، برقم (٥٤٣) .

(٤) حلية الأولياء ، ١٠٨/٨ ، صفة الصفوة ، ٢٤١/٢ .

(٥) أدب الدنيا والدين ، ص ٢٤٩ .

(٦) المرجع السابق ، ص ٢٤٩ .

(٧) سورة الانفطار ، آية ١٠ ، ١١ .

و يكون ذلك: بالبعد عن المعاصي والقبائح، وإكرامهم عن مجالس الخنا، وأقوال السوء، والأفعال المذمومة المستقبحة. فعن أبي هريرة -رضي الله عنه- قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (ليستح أحدكم من ملكيه اللذين معه، كما يستحي من رجلين صالحين من جيرانه وهما معه بالليل والنهار) ^(١).

وقال عبد الرحمن ابن أبي ليلى في قوله تعالى: ﴿وَجَاءَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَعَهَا سَائِقٌ وَشَهِيدٌ﴾ ^(٢)، (ما على أحدكم إذا خلى أن يقول: اكتب رحمك الله. فيملي خيراً) ^(٣). ومراده من ذلك: أن يحسن العمل، فيكتب الكاتبون في صحائفه خيراً حياً من الله ومن ملائكته.

وعن ابن عمر -رضي الله عنهما- أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: (إياكم والتعري فإن معكم من لا يفارقكم إلا عند الغائط، وحين يفضي الرجل إلى أهله. فاستحيوهم وأكرمهم) ^(٤).

وقال الرازي: (إن الإنسان إذا علم أن الملائكة تحصى عليه أعماله كان إلى الحذر من المعاصي أقرب؛ لأن من آمن يعتقد جلاله الملائكة، وعلو مراتبهم، فإذا حاول الإقدام على معصية واعتقد أنهم يشاهدونها، زجره الحياء منهم عن الإقدام عليها، كما يزجره عنها إذا حضره من يعطيه من البشر، وإذا علم أن الملائكة تحصى عليه تلك الأعمال كان ذلك أيضاً رادعاً له عنها، وإذا علم أن الملائكة يكتبونها كان الردع أكمل) ^(٥).
وعن ابن عباس عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: (إن الله ينهاكم عن التعري فاستحيوا من الملائكة الكرام الكاتبين الذين لا يفارقوكم إلا عند الغائط والجنابة والغسل فإذا اغتسل أحدكم بالعراء فليستتر بثوبه أو يجذم حائط) ^(٦).

نقول ومما نقل من حياء السلف رحمهم الله ما روي عن أبي بكر بن عياش أنه قال وهو يدعو: (يا ملكي ادعوا الله لي؛ فإنكما أطوع لله مني) ^(٧).

٣. الحياء من الناس:

فإذا العبد إذا استحيا من ربه حق الحياء واستحى من نفسه -كما سيأتي- انعكس ذلك عليه بالتأدب والتخلق بأخلاق النفس الكريمة على ممارساته، وسلوكه اليومي، وعلاقاته مع الناس الآخرين،

(١) كثر العمال، ٥١/٣، برقم (٥٧٥١).

(٢) سورة ق، آية ٢١.

(٣) حلية الأولياء، ٣٥٢/٤.

(٤) رواه الترمذي، ١١٢/٥، برقم (٢٨٠٠)، كتاب الأدب عن رسول الله صلى الله عليه وسلم، باب ما جاء في الاستتار عند الجماع. وقال "هذا حديث غريب لا نعرفه إلا من هذا الوجه".

(٥) التفسير الكبير، ١٧/١٩.

(٦) قال شيخ الإسلام ابن تيمية في شرح العمدة (٤٠١/١-٤٠٢): (رواه إبراهيم الحربي ورواه ابن بطة من حديث ابن عمر وقد صح ذلك من مراسيل مجاهد). أ. هـ.

قلت: ولم أجده في شيء من كتب السنة مع طول التتبع.

(٧) حلية الأولياء، ٣٠٣/٨.

فيجتنب عمل القبيح أمامهم كما اجتنب القبيح أمام الله ، ويكون قريباً من الصدق والاستقامة مع الله ومع النفس ومع الناس.

ومن أسباب هذا الحياء مجالسة من يُستحي منه، فلو لم يكن في صحبة الصالحين إلا أنها تمنع من اقتراف المعاصي لكفى. كما سبق من حديث أبي هريرة -رضي الله عنه- قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (ليستح أحدكم من ملكيه اللذين معه كما يستحي من رجلين صالحين من جيرانه وهما معه بالليل والنهار)^(١).

وهذا النوع من الحياء هو أساس مكارم الأخلاق، ومنع كل فضيلة؛ لأنه يترتب عليه القول الطيب، والفعل الحسن، والعفة والترهة... والحياء من الناس على قسمين:

- أ- قسمٌ صاحبه مستحيٌ من الناس، جازمٌ بأنه لا يأتي هذا المنكر، والفعل القبيح إلا خوفاً من الله تعالى أولاً، ثم اتقاء ملامة الناس وذمهم ثانياً. فهذا يأخذ أحر حياته كاملاً؛ لأنه استكمل الحياء من جميع جهاته، إذ ترتب عليه الكف عن القبائح التي لا يرضاها الدين والشرع ويذمه عليها الخلق. وهذا القسم أحسن الحياء وأكمله وأتمه.
- ب- قسم يترك القبائح والردائل حياءً من الناس، وإذا خلا من الناس لا يتحرج من فعلها. وهذا النوع من الناس عنده حياءٌ، ولكنه حياءٌ ناقص ضعيف يحتاج إلى علاج وتذكير بعظمة ربه وجلاله، وأنه أحقُّ أن يستحيا منه .

وعلى ذلك فإن هذا العبد لا يليق به أن يستحي من الناس الذين لا يملكون له ضرراً ولا نفعاً، لا في الدنيا ولا في الآخرة، ثم لا يستحي من الله الرقيب عليه المتفضل عليه الذي ليس له غنى عنه. فيكون بكف الأذى وترك المجاهرة بالقبيح.

أما الذي يجاهر بالمعاصي ولا يستحي من الله، ولا من الناس فهذا من شر ما منيت به النفس، وانتهكت به العفة؛ لأن المعاصي داء سريع الانتقال، لا يلبث أن يعم شرها ، ويتفاقم خطبها فشرها عظيم وخطرها كبير .

ومن ذلك: الحياء من الرسول الحبيب صلى الله عليه وسلم حين الوقوف أمامه على الحوض، فيعاتب عتاباً يُقَطِّعُ نياط القلوب: هل ابتدعت في دين الله عز وجل؟، ماذا فعلت بميراث النبوة؟، ماذا صنعت للدعوة إلى الله -عز وجل-؟، هل كانت نيتك خالصةً لوجه الله عز وجل؟. فيستحي العبد منه .

الحياء مع الوالدين: فلا يتأفف أمامها بل يُسمعهما أحسن القول ﴿ فَلَا تَقُلْ هُمَا أَفْ وَلَا تَهَرَّهُمَا وَقُلْ لَهُمَا قَوْلًا كَرِيمًا ﴾^(٢)، فعن أبي هريرة رضي الله عنه أن النبي صلى الله عليه وسلم رأى رجلاً

(١) سبق تحريجه .

(٢) سورة الإسراء ، آية ٢٣ .

معه غلام، فقال للغلام : من هذا ؟ قال: أبي، قال: فلا تمش أمامه، ولا تستسب له، ولا تجلس قبله، ولا تدعه باسمه^(١).

١. الحياء مع ذوي الفضل والعلم: فعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (تعلموا العلم، وتعلموا للعلم السكينة والوقار، وتواضعوا لمن تعلمون منه)^(٢). فقد كان أئمة السلف على جانب عظيم من الحياء وما نالوا مكانتهم في سيادة المسلمين إلا لأنهم تخرجوا من مدرسة الحياء، حتى أن الفضيل بن عياض رحمه الله يروي أنه وأقرانه ما كانوا يواجهون مشايخهم مواجهةً، لما كان هناك من حياء، يقول: "كنا نأتي المشيخة فلا نرى أنفسنا أهلاً للجلوس معهم، فنجلس دونهم ونسرق السمع فإذا مر الحديث سألناهم إعادته وقيدناه". واليوم يتعلم الشاب ثلاث مسائل فيروح يعاند العلماء، ويطلق الاعتراض، ويرفع الصوت^(٣).

٤. الحياء من النفس: وهو حياء النفوس العزيزة من أن ترضى لنفسها بالنقص أو تقنع بالدون. قال فيثاغورس: (احذر أن تتركب قبيحاً من الأمر، لا في خلوة ولا مع غيرك. وليكن استحيائك من نفسك أكثر من استحيائك من كل أحد)^(٤).

فيكون الإنسان ذا سمعة كريمة وضيئة مضيئة، في بيته ومجلسه وسوقه، فلا يتحدث بالذي يكون بينه وبين أهله، أو عن ماضيه القبيح وما كان فيه من الآثام والمعاصي، بل يحرص على تركية نفسه وتنقيتها وحملها على الوقوف مواقف الخير والصالح في كل موطن، فضلاً عن الارتقاء بها إلى مراتب الحكمة والمسؤولية؛ لتكون الناصح الأقرب إليه، والواعظ الأكبر له، والرقيب الزاجر عن فعل السيء. ويكون هذا الحياء: بالعفة، وصيانة الخلوات، وحسن السريرة. فيجد العبد المؤمن نفسه تستحي من نفسه حتى كأن له نفسين تستحي إحداهما من الأخرى. وهذا أكمل ما يكون من الحياء. فإن العبد إذا استحي من نفسه فهو بأن يستحي من غيره أجدر. قال الماوردي: (قال بعض الحكماء: من عمل في السر عملاً يستحي منه في العلانية فليس لنفسه عنده قدر)^(٥).

(١) رواه النسائي في عمل اليوم والليلة ٣٥٣/١، برقم (٣٩٥)، باب النهي عن أن يسمى الرجل أباه باسمه، ورواه الطبراني في الأوسط ٢٦٧/٤، برقم (٤١٥٩)، مرفوعاً إلى النبي صلى الله عليه وسلم من رواية عائشة-رضي الله عنها-، ونقل الهيثمي في مجمع الزوائد ١٣٧/٨ عن الطبراني قوله: (لا يروى عن النبي صلى الله عليه وسلم إلا بهذا الإسناد-الذي روى به في الأوسط- عن شيخه علي بن سعيد بن بشير وهو لئيم، وقد نقل ابن دقيق العيد أنه وثق ومحمداً بن عروة بن الرند لم أعرفه، وبقي رجاله رجال الصحيح). هـ.

(٢) رواه الطبراني في الأوسط ٢٠٠/٦، برقم (٦١٨٤)، و الخطيب في الجامع لأخلاق الراوي وآداب السامع، ٩٣/١، برقم (٤١)، موقوفاً من قول عمر بن الخطاب رضي الله عنه، وزاد فيه: (ولا تكونوا جبابرة العلماء فلا يقوم علمكم بجهلكم). وإسناده ضعيف.

(٣) آفاق الجمال، ص ٢٢. بتصرف.

(٤) عيون الأنباء في طبقات الأطباء، ٦٧/١.

(٥) فيض القدير، ٢٦٧/٣.

والحقيقة أن هناك نفساً أماراً بالسوء تأمر صاحبها بالقبائح. قال تعالى على لسان امرأة العزيز: ﴿وَمَا أُبْرِئُ نَفْسِي ۚ إِنَّ النَّفْسَ لَأَمَّارَةٌ بِالسُّوءِ إِلَّا مَا رَحِمَ رَبِّي ۚ إِنَّ رَبِّي غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ (١).

والنفس الثانية هي النفس الأمارة بالخير الناهية عن القبائح وهي النفس المطمئنة.

قال تعالى: ﴿يَتَأْتِيهَا النَّفْسُ الْمُطْمَئِنَّةُ﴾ (٢) أَرْجِعِي إِلَىٰ رَبِّكِ رَاضِيَةً مَّرْضِيَّةً ﴿٢٨﴾ فَأَدْخُلِي فِي عِبَادِي ﴿٢٩﴾ وَأَدْخُلِي جَنَّتِي ﴿٣٠﴾ (٣).

إذا فعلى الإنسان أن يُجاهد نفسه، فلا يجعلها تفكر في الحرام ولا تعمله، حتى يكون ممن قال الله تعالى فيهم: ﴿وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا ۚ وَإِنَّ اللَّهَ لَمَعَ الْمُحْسِنِينَ﴾ (٤).

ومما يدخل تحت هذا النوع:

حياء المرأة: فلا تخدش حياتها بما يُغضب الله تعالى ويعود عليها بالذلة والمهانة في الدنيا والآخرة، ﴿وَلَا تَبَرَّجْنَ تَبَرُّجَ الْجَاهِلِيَّةِ الْأُولَىٰ﴾ (٥).

وقد اختلف الأئمة رحمهم الله في تقسيم هذه الأقسام:

● فأما الإمام أبو الحسن الماوردي-رحمه الله- فقد بين أن الحياء في الإنسان قد يكون من

ثلاثة أوجه، فهو أقسامٌ ثلاثة على رأيه، وهي:

١. حياؤه من الله تعالى.

٢. حياؤه من الناس.

٣. حياؤه من نفسه (٦).

وأما ببيانها فقد سبق شيءٌ منه في بيان الأنواع السابقة.

وأما الإمام أبو حاتم-رحمه الله- فقد قسم الحياء إلى قسمين كما يلي:

١. استحياء العبد من الله جل وعلا: ويكون عند الإهتمام بمباشرة ما خطر عليه. فلزوم الحياء عند

مجانبة ما نهى الله عنه فرض.

٢. استحياء من المخلوقين: ويكون عند الدخول فيما يكرهون من القول والفعل معاً. ولزوم الحياء

عند مقارفة ما يكره الناس فضلاً.

وهما جميعاً محمودان (٧).

(١) سورة يوسف ، آية ٥٣ .

(٢) سورة الفجر ، آية ٢٧-٣٠ .

(٣) سورة العنكبوت ، آية ٦٩ .

(٤) سورة الأحزاب ، آية ٣٣ .

(٥) انظر : الحياء (مطوية) .

(٦) انظر : أدب الدنيا والدين ، ص ٢٤٩ .

(٧) انظر : روضة العقلاء ، ١/ ٥٧ .

المبحث الثالث : أنواع الحياء :

فقد قسم ابن القيم -رحمه الله- الحياء إلى عشرة أنواع، وإن كان جُلّها مما انفرد به - عما ذكرنا آنفاً- يرجع إليه في الحقيقة، وهي كما ذكر ذلك -رحمه الله-:

١. حياءُ الجنّاية:

ومنه حياء آدم عندما فرَّ هارباً في الجنة. فقال الله تعالى له: أفراراً مني يا آدم؟، فقال: لا بل حياء منك يارب مما جنيت^(١).

٢. حياءُ التقصير:

مثل حياء الملائكة الذين ﴿يُسَبِّحُونَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ لَا يَفْطُرُونَ﴾^(٢). فإذا كان يوم القيامة قالوا: سبحانك ما عبدناك حق عبادتك.

٣. حياء الإجلال:

وهو حياء المعرفة، ويكون بحسب معرفة العبد بربه .
وحياء الإجلال مُتَبَعُهُ معرفة الرب عز وجل ، وإدراك عظم حقه ومشاهدة مننه وآلائه .
٤. حياء الكرم:

مثل حياء النبي صلى الله عليه وسلم من القوم الذين دعاهم إلى وليمة زينب وأطالوا الجلوس عنده، فقام واستحي أن يقول لهم: انصرفوا^(٣).
٥. حياء الحشمة:

مثل حياء علي بن طالب -رضي الله عنه- أن يسأل رسول الله صلى الله عليه وسلم عن المذي لمكان ابنته منه. فعنه-رضي الله عنه- قال: كنت رجلاً مذاءً ، وكنت أستحيي أن أسأل النبي صلى الله عليه وسلم؛ لمكان ابنته. فأمرت المقداد بن الأسود فسأله. فقال: (يغسل ذكره ويتوضأ)^(٤).

٦. حياء الإستحقار واستصغار النفس:

مثل حياء العبد من ربه عز وجل حين يسأله حوائجه احتقاراً لشأن نفسه، واستصغاراً لها، وفي أثر إسرائيلي: (إن موسى عليه السلام قال: يا رب إنه لتعرض لي الحاجة من الدنيا ، فأستحيي أن أسألك

(١) أخرجه في كتر العمال ، ٢٥٧/١٥ .

(٢) سورة الأنبياء ، آية ٣ .

(٣) رواه مسلم ١٠٤٨/٢ ، برقم (١٤٢٨)، في كتاب النكاح، باب زواج زينب بنت جحش ونزول الحجاب وإثبات وليمة العرس. ورواه الإمام أحمد في مسنده ١٩٥/٣ ، برقم (١٣٠٤٤) .

(٤) رواه البخاري ١٠٥/١ ، برقم (٢٦٦)، كتاب الغسل، باب غسل المذي والوضوء منه. ومسلم ٢٤٧/١ ، برقم (٣٠٣)، كتاب الحيض، باب المذي. واللفظ لمسلم .

هي يا رب ، فقال الله تعالى: سلمي حتى ملح عجنتك ، وعلف شاتك^(١). ولهذا النوع من الحياء سببان:

١ . استحقار السائل نفسه واستعظام ذنوبه وخطاياها.

٢ . استعظام مسئّله - وهو الحقّ عزوجل -.

٧. حياء المحبة:

وهو حياء المُحِبِّ من محبوبه، حتى إنه إذا خطر على قلبه في غيبته هاج الحياء من قلبه، وأحسَّ به في وجهه لا يدري ما سببه، وكذلك يعرض عند ملاقاته محبوبه، ومناجاته له روعةً شديدةً، وسبب هذا أنّ للمحبة سلطاناً قاهراً للقلب. أعظم من سلطان من يقهر البدن، فأين من يقهر قلبك وروحك إلى من يقهر بدنك؟!، ولذلك تعجبت الملوك والجبابة من قهرهم للخلق ، وقهر المحبوب لهم وذلم له. فإذا فاجأ المحبوب مُحِبُّهُ ورآه بغتةً أحسَّ القلب بهجوم سلطانه عليه فاعتراه روعة وخوف.

وسأل ابن القيم يوماً شيخ الإسلام ابن تيمية - رحمه الله - عن هذه المسألة فذكر ابن القيم هذا الجواب. فتبسم شيخ الإسلام ولم يقل شيئاً. وأما الحياء الذي يعتريه منه وإن كان قادراً عليه كأتمته وزوجته فسببه - والله أعلم - أنّ هذا السلطان لما زال خوفه عن القلب بقيت هيئته واحتشامه فتولد منها الحياء، وأما حصول ذلك له في غيبة المحبوب فظاهر؛ لاستيلائه على قلبه فوهمه يغالطه عليه ويكابر به حتى كأنه معه.

٨. حياء العبودية:

وهو حياء ممتزج من محبة وخوف ومشاهدة عدم صلاح عبوديته لمعبوده، وأنّ قدر معبوده أعلى وأجلُّ منها، فعبوديته له توجب استحياؤه منه لا محالة. فهو يصل بصاحبه إلى أعلى مراتب الدين، وهي مرتبة الإحسان، التي يحس فيها العبد دائماً بنظر الله إليه، وأنه يراه في كل حركاته وسكناته، فيتزين لربه بالطاعات. وهذا الحياء يجعله دائماً يشعر بأن عبوديته قاصرة حقيرة أمام ربه لأنه يعلم أن قدر ربه أعلى وأجل. قال ذو النون: (الحياء وجود الهيبة في القلب، مع وحشة مما سبق منك إلى ربك)^(٢).

٩. حياء الشرف والعزة:

فحياء النفس العظيمة الكبيرة إذا صدر منها ما هو دون قدرها ، من بذل أو عطاء وإحسان فإنّه يستحي مع بذله حياء شرف نفس وعزة. وله سببان:

١ . ما ذكر آنفاً .

٢ . استحياؤه من الآخذ حتى كأنه هو الآخذ السائل، حتى إنّ بعض أهل الكرم لا تطاوعه نفسه بمواجهته لمن يعطيه حياء منه، وهذا يدخل في حياء التلوم؛ لأنه يستحيي من خجلة الآخذ.

١٠. حياء المرء من نفسه:

(١) مدارج السالكين ، ٢/٢٦٢ .

(٢) مرقاة المفاتيح ، ٩/٢٦٥ .

وهو حياء النفوس الشريفة العزيزة الرفيعة من رضاها لنفسها بالنقص وقناعتها بالدون، فيجد نفسه مستحيًا من نفسه حتى كأن له نفسين يستحيي بإحدهما من الأخرى، وهذا أكمل ما يكون من الحياء. فإن العبد إذا استحيى من نفسه فهو بأن يستحيى من غيره أجدر^(١).

المبحث الرابع : درجات الحياء :

فقد قسم صاحب منازل السائرين الحياءَ إلى درجات ثلاث^(٢). -وفي تقسيمه شيء من نَفْسِ الصوفية لا يخفى-، كما نقله عنه ابن القيم -رحمه الله- في كتابه العُجاب مدارج السالكين. أنقله هنا مع مزيد بيان أُورِدُهُ بتصرف، فقد قُسِّمَ الحياءُ إلى درجات ثلاث:

الدرجة الأولى: حياء يتولد من علم العبد بنظر الله إليه: فيجذبه إلى تحمل هذه المجاهدة، ويحمله على استقباح الجنائية ويسكته عن الشكوى:

أي: أن العبد متى علم أن الرب تعالى ناظرٌ إليه أورثه هذا العلم حياءً منه يجذبه إلى احتمال أعباء الطاعة، والرب تعالى لا يغيب نظره عن عبده، ولكن يغيب نظر القلب والتفاتة إلى نظره الله إلى عباده، فإن القلب إذا غاب نظره وقلَّ التفاته إلى نظر الله تبارك وتعالى إليه تولد من ذلك قلة الحياء والقحة، وكذلك يحمله على استقباح جنائته؛ ولذلك فإن هذا الحياء يَكْفُ العبد أن يشتكي لغير الله فيكون قد شكَا الله إلى خلقه، ولا يمنع الشكوى إليه سبحانه فإن الشكوى إليه سبحانه فقرٌ وذلةٌ وفاقةٌ وعبوديةٌ فالحياء منه في مثل هذا لا ينافيها.

الدرجة الثانية: حياء يتولد من النظر في علم القُرب، فيدعوه إلى ركوب الحبة، ويربطه بروح الأنس ويُكرِّه إليه ملايسة الخلق:

فالنظر في علم القرب يُحقق للقلب المعية الخاصة مع الله، فإن المعية نوعان:

١. عامة: وهي معية العلم والإحاطة، كقوله تعالى: ﴿وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنْتُمْ﴾^(٣).

٢. خاصة: وهي معية القرب، كقوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ مَعَ الَّذِينَ اتَّقَوْا وَالَّذِينَ هُمْ مُحْسِنُونَ﴾^(٤).

فهذه معية قُرب تتضمن الموالاتة والنصر والحفظ.

وكلا المعنيين مصاحبةً من الله للعبد، لكن تلك مصاحبة اطلاع وإحاطة، وهذه مصاحبة موالاتة ونصر وإعانة، فالمعية في لغة العرب تُفيد الصحبة اللائقة، ولا تُشعر بامتزاج ولا اختلاط ولا مجاورة ولا مجانبة، فمن ظن شيئاً من هذا فقد أتي من سوء فهمه.

وأما القُرب فلا يقع في القرآن إلا خاصاً، وهو نوعان:

(١) مدارج السالكين ، ٢/٢٦١-٢٦٤ . " بتصرف " .

(٢) منازل السائرين ، ١/٥٤ ، باب الحياء .

(٣) سورة الحديد ، آية ٤ .

(٤) سورة النحل ، آية ١٢٨ .

١. قربه من داعيه بالإجابة: كقوله تعالى : ﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ﴾ ^(١)؛ ولهذا نزلت جواباً للصحابه -رضي الله عنهم- وقد سألوا رسول الله صلى الله عليه وسلم : ربنا قريبٌ فنناجيه أم بعيدٌ فنناديه؟، فأُنزل الله تعالى هذه الآية ^(٢).
٢. قربه من عابده بالإثابة: كأقرب ما يكون العبد من ربه وهو ساجد، وأقرب ما يكون الرب من عبده في خوف الليل فهذا قربه من أهل طاعته ^(٣).
- والقصد أن هذا القرب يدعو صاحبه إلى ركوب المحبة، فكلما ازداد حباً ازداد قرباً، فالمحبة بين قُربين، قربٌ قبلها، وقرب بعدها. وبين معرفتين، معرفة قبلها حَمَلَتْ عليها ودعت إليها ودلت عليها، ومعرفة بعدها هي من نتائجها وآثارها.
- وأما ربطه بروح الأنس فهو تعلق قلبه بروح الأنس بالله تعلقاً لازماً لا يفارقه، بل يجعل بين القلب والأنس رابطة لازمة، ولا ريب أن هذا يكره إليه ملابسة الخلق، بل يجد الوحشة في ملابستهم بقدر أنسه بربه، وقرّة عينه بحبه وقربه منه؛ فإنه ليس مع الله غيره، فإن لا بسهم لا بسهم برسمه دون سره وروحه وقلبه، فقلبه وروحه في ملأ، وبدنه ورسمه في ملأ.
- الدرجة الثالثة:** حياء يتولد من شهود الحضرة وهي التي لا تشوبها هيبة، ولا تقارنها تفرقة، ولا يوقف لها على غاية:
- فأما قوله: (شهود الحضرة): أي: انجذاب الروح والقلب من الكائنات، وعكوفه على رب البريات، فهو في حضرة قربه مشاهداً لها، وإذا وصل القلب إليها غشيتة الهيبة، وزالت عنه التفرقة، إذ ما مع الله سواه فلا يخطر بباله في تلك الحال سوى الله وحده.
- وأما قوله: (ولا يوقف لها على غاية): فيعني أن كل من وصل إلى مطلوبه وظفر به وصل إلى الغاية، إلا صاحب هذا المشهد فإنه لا يقف بحضرة الربوبية على غاية، فإن ذلك مستحيل بل إذا شهد تلك الرواي، ووقف على تلك الربوع، وعاین الحضرة التي هي غاية الغايات شارفاً أمراً لا غاية ولا نهاية له. والغايات والنهايات كلها تنتهي إلى الله ﴿وَأَنَّ إِلَىٰ رَبِّكَ أَلْمَنَتِي﴾ ^(٤) فانتهدت إليه الغايات والنهايات، وليس له سبحانه غاية ولا نهاية لا في وجوده ولا في مزيد جوده ^(٥).

(١) سورة البقرة ، آية ١٨٦ .

(٢) انظر : لباب النقول ، ٣٣/١ ، العجاب في بيان الأسباب ، ٤٣٤/١ .

(٣) انظر : تحفة الأحوذى ، ٢٨/١٠ - ٢٩ .

(٤) سورة النجم ، آية ٤٢ .

(٥) منازل الساترين ، ٥٤/١ ، مدارج السالكين ، ٢٦٤/٢ - ٢٦٨ " بتصرف " .

الفصل الخامس

صور من الحياء

الحياء في السير وكتب التراجم مما يصعب على الباحث والقارئ حصره ، فهي كثيرة لا تحصى ، وكذلك في كتب السنة ، والصور لم تختص بالأمة الإسلامية ، بل تعدت ذلك إلى الجاهليين^(١). ومما وقفت عليه من تلك الأمثلة ما يلي ، وقد قسمتها على مباحث ثلاثة وهي كالتالي :

المبحث الأول: من حياء الأنبياء - عليهم الصلاة والسلام :-

أولاً : حياء النبي صلى الله عليه وسلم:

وقد سبق ذكر شيء من ذلك في ثنايا البحث. ومن ذلك أن علي رضي الله عنه قال: أن يهودياً يُقال له: فلان حبرٌ، كان له على رسول الله دنائيرٌ فتقاضى النبي فقال له: (يا يهودي ما عندي ما أعطيك)، قال: فإني لا أفارقك يا محمد حتى تعطيني. فقال رسول الله: (إذا أجلس معك) فجلس معه، فصلّى رسول الله الظهرَ والعصرَ والمغربَ والعشاءَ الآخرةَ والغداةَ، وكان أصحابُ رسول الله يتهدّدونه ويتوعّدونه، ففطن رسول الله ما الذي يصنعون به، فقالوا يا رسول الله: يهوديٌ يجسّسك. فقال رسول الله: (منعني ربي أن أظلم معاهداً وغيره). فلما ترجّل النهارُ قال اليهوديُّ: أشهد أن لا إله إلا الله وأشهد أنك رسول الله، وشطرُ مالي في سبيل الله، أما والله ما فعلت بك الذي فعلت بك إلا لأنظرَ إلى نعتك في التوراة محمد بن عبد الله مولده بمكة ومهاجره بطيبة ومُلكه بالشام، ليس بفظ ولا غليظ، ولا سخّاب في الأسواق، ولا مُتزيّ بالفحش ولا قول الخنا. أشهد أن لا إله إلا الله وأنت رسول الله، وهذا مالي فاحكم فيه بما أراك الله. وكان اليهودي كثير المال^(٢).

بل إن وصف الحياء كان ملازماً له صلى الله عليه وسلم، فعن أبي سعيد الخدريّ-رضي الله عنه- قال: (كَانَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَشَدَّ حَيَاءً مِنَ الْعُذْرَاءِ فِي خِدْرِهَا ، وَكَانَ إِذَا كَرِهَ شَيْئًا عَرَفَنَاهُ فِي وَجْهِهِ) .متفق عليه^(٣).

(١) فقد كان بعضهم يتخرج من القبائح بدافع الحياء، كقصة أبي سفيان مع هرقل، وانظر: صحيح البخاري ٧/١، برقم(٧)، باب بدء الوحي، وما حصل مع خويلد والد خديجة رضي الله عنها والنبي صلى الله عليه وسلم، وانظر: مسند الإمام أحمد ٣١٢/١، برقم(٢٨٥١)، والطبراني في الكبير ١٨٦/١، برقم(١٢٨٣٨). وانظر: ديوان المعاني ١/٢٢٨..

(٢) مشكاة المصابيح ، ١٦٢١/٣ ، برقم (٥٨٣٢) ، البيهقي في دلائل النبوة ٢٨٠/٦ . وانظر: الأخلاق الإسلامية ، ٥١٢/٢ ، ٥٧/١ ..

(٣) رواه البخاري ٢٢٦٣/٥ ، برقم(٥٧٥١)، كتاب الأدب، باب من لم يواجه الناس بالعتاب. ومسلم ١٨٠٩/٤ ، برقم(٢٣٢٠)، كتاب الفضائل، باب كثرة حياته صلى الله عليه وسلم.

ثانياً: حياء موسى عليه السلام:

فقد جاء في وصفه أنه كان حياً ستيراً، حتى كان يستر بدنه، ويستحيي أن يظهر مما تحت الثياب شيئاً حتى مما ليس بعورة. وبسبب تستره الزائد آذاه بعض بني إسرائيل في أقوالهم، فقالوا: ما يبلغ في ستر نفسه إلا من عيب في جسمه، أو من أدرة^(١)، هو مصاب بها.

فعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (إن موسى كان رجلاً حياً ستيراً، لا يرى من جلده شيء استحياء منه، فأذاه من بني إسرائيل، فقالوا: ما يستر هذا التستر إلا من عيب بجلده إما برص، وإما أدرة، وإما آفة. وإن الله أراد أن يبرئه مما قالوا لموسى، فخلأ يوماً وحده فوضع ثيابه على الحجر، ثم اغتسل فلما فرغ أقبل إلى ثيابه ليأخذها وإن الحجر عدا بثوبه، فأخذ موسى عصاه وطلب الحجر، فجعل يقول: ثوبي حجر، ثوبي حجر. حتى انتهى إلى ملأ من بني إسرائيل فرأوه عرياناً أحسن ما خلق الله، وأبرأه مما يقولون، وقام الحجر، فأخذ ثوبه فلبسه، وطفق بالحجر ضرباً بعصاه، فوالله إن بالحجر لندباً من أثر ضربه ثلاثاً، أو أربعاً، أو خمساً، فذلك قوله: ﴿يَتَأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ ءَادَوْا مُوسَىٰ فَبَرَّاهُ اللَّهُ مِمَّا قَالُوا وَكَانَ عِنْدَ اللَّهِ وَجِيهًا﴾^(٢) (٣).

وحياء موسى الزائد كان من همته العلية التي تنشئ الكمال، وقد رأى في ذوقه الرفيع أن ستر بدنه أكثر كمالاً من كشفه، فكان يستحيي من كشفه للناس^(٤).

المبحث الثاني: من حياء الصحابة رضي الله عنهم:

أولاً: أم المؤمنين عائشة بنت أبي بكر الصديق-رضي الله عنها-:

قالت-رضي الله عنها-: (كنت أدخل بيتي الذي دفن فيه رسول الله صلى الله عليه وسلم وأبي فأضع ثوبي. فأقول: إنما هو زوجي وأبي. فلما دفن عمر معهم، فوالله ما دخلت إلا وأنا مشدودة عليّ ثيابي حياءً من عمر رضي الله عنه^(٥)).

ثانياً: أبو موسى الأشعري-رضي الله عنه-:

(١) الأدرة: هي انتفاخ في الخصى بسبب فتق

(٢) سورة الأحزاب ، آية ٦٩ .

(٣) رواه البخاري (١٢٤٩/٣)، برقم (٣٢٢٣)، كتاب الأنبياء، باب طوفان من السيل، ومسلم (١٨٤٢/٤)، برقم (٣٣٩)، كتاب الفضائل، باب فضائل موسى صلى الله عليه وسلم.

(٤) انظر: الأخلاق الإسلامية وأسسها ٥١٢/٢.

(٥) رواه الإمام أحمد ، ٢٠٢/٦ ، برقم (٢٥٧٠١) ورجاله رجال الصحيح ، وانظر : مجمع الزوائد ، ٢٦/٨ .

قال -رضي الله عنه-: إني لأدخل البيت المظلم أغتسل فيه من الجنابة فأحني فيه ظهري إذا أخذت ثوبي حياءً من ربي.

وجاء عنه أنه كان له تَبَانٌ ينام فيه مخافةً أن ينكشف^(١).

المبحث الثالث : من حياء السلف - رحمهم الله - - :

أولاً : عامر بن عبد قيس:

جاء في سيرته أنه هبط واديا يقال له: وادي السباع. وفي الوادي عابد حبشي، يقال له: حممة. فانفرد عامر في ناحية، وحممة في ناحية يصليان، لا هذا ينصرف إلى هذا، ولا هذا ينصرف إلى هذا، أربعين يوماً وأربعين ليلة، إذا جاء وقت الفريضة صلياً، ثم أقبلًا يتطوعان، ثم انصرف عامراً بعد أربعين يوماً فجاء إلى حممة، فقال : من أنت يرحمك الله؟، قال: دعني وهمي. قال: أقسمت عليك. قال: أنا حممة. قال عامر: لكن كنت أنت حممة الذي ذُكر لي لأنت أعبدُ من في الأرض، فأخبرني عن أفضل خصلة؟، قال: إني لمقصر، ولولا مواقيت الصلاة تقطع عليّ القيام والسجود، لأحببت أن أجعل عمري راکعاً، ووجهي مفترشاً حتى ألقاه، ولكن الفرائض لا تدعني أفعل ذلك. فمن أنت يرحمك الله؟، قال: أنا عامر بن عبد قيس. قال: إن كنت عامر بن عبد قيس الذي ذُكر لي فأنت أعبد الناس. فأخبرني بأفضل خصلة؟، قال: إني لمقصر، ولئن واحدة عظمت هيبة الله في صدري حتى ما أهاب شيئاً غيره. فاكتنفته السباع فأتاه سبعٌ منها فوثب عليه من خلفه، فوضع يديه على منكبيه. وعامر يتلو هذه الآية: ﴿ذَلِكَ يَوْمٌ مَّجْمُوعٌ لَهُ النَّاسُ وَذَلِكَ يَوْمٌ مَّشْهُودٌ﴾^(٢). فلما رأى السبع أنه لا يكثر له ذهب. فقال حممة: بالله يا عامر ما هالك ما رأيت؟، قال: إني لأستحي من الله أن أهاب شيئاً غيره. قال حممة: لولا أن الله ابتلانا بالبطن، فإذا أكلنا لابد لنا من الحدث ما رأني ربي عز وجل إلا راکعاً وساجداً^(٣).

ثانياً : عمرو بن عقبة بن فرقد:

وقد نقل عنه نحو ما نقل عن عامر بن عبد قيس ، وجاء في سيرته أنه كان يصلي يوماً في شدة الحر فأظلمته غمامةٌ، وكان السبع يحميه وهو يرعى ركاب أصحابه لأنه كان يشترط على أصحابه في الغزو أنه يخدمهم^(٤).

(١) انظر: مصنف ابن أبي شيبة ١/١٠٠، برقم (١١٢٨)، الزهد لإمام أحمد ١/١٩٨، سير أعلام النبلاء ٤٠١/٢، الطبقات الكبرى ٤/١١٣ -

١١٤، صفة الصفوة ١/٥٥٩، الآداب والأحكام المتعلقة بدخول الحمام ١/٥٠، تعظيم قدر الصلاة ٢/٨٢٩، برقم (٨٢٩).

(٢) سورة هود، آية ١٠٣ .

(٣) انظر : تاريخ مدينة دمشق ، ٢٦-٢٥/٢٦ ، حلية الأولياء ، ٨٩/٢ .

(٤) مجموع الفتاوى ، ٢٨١/١١ .

ثالثاً : محمد بن سيرين :

قال-رحمه الله-: ما أتيت امرأة في نوم ولا يقظة إلا أم عبد الله. -يعني زوجته-.
وقال: إني أرى المرأة في المنام فأعرف أنها لا تحل لي فأصرف بصري عنها ^(١) .

رابعاً : أبو الحسن بنان الواسطي، المعروف بـ(بنان الحمّال):

كان-رحمه الله- صاحب كرامات وآيات ^(٢)، سطرهما كتب التراجم ، وأفاضت في ذكرها كتب طبقات المتصوفة.

ومن كراماته أن ابن طولون غضب عليه، وذلك أنه قام إلى وزيره فأنزله عن دابته وكان نصرانياً، وقال له: لا تركب الخيل، ويلزمك ما هو مأخوذ عليكم في ملتكم. فأمر به أن يُلقى بين يدي سبع، فجعل السبع يشمه ولا يضره. فلما أصبحوا وجدوه قاعداً مستقبل القبلة، والسبع بين يديه، فلما أُخرج من بين يدي السبع، قيل له: ما الذي كان في قلبك حيث شمك؟، قال: كنت أتفكر في سؤر السباع ولعابها. فأطلقه واعتذر إليه ^(٣).

وتلك الصور كثيرة ، يستحيل حصرها ، ولكن حسبك بالقلادة ما أحاط بالعنق .

(١) المنتظم ، ١٣٩/٧ ، تاريخ مدينة دمشق ، ٢٠٥/٥٣ ، تاريخ بغداد ، ٣٣٦/٥ .

(٢) سير أعلام النبلاء ، ٤٨٩/١٤ .

(٣) الأنساب ٢٥٤/٢ ، صفة الصفوة ٤٤٩/٢ ، تاريخ الإسلام ٥٠٩/٢٣ ، النجوم الزاهرة ٢٢١/٣ .

* وسبب تسميته بـ(الحمّال): أنه خرج إلى الحج سنة، وحمل على رقبته زاداً وكان يتوكل، فرأته عجوزٌ في البادية فقالت: أنت حمال ما أنت متوكل ما ظننت أن الله يرزقك حتى حملت الزاد إلى بيته ومائدته. فرمى ما على رقبته. فكان يلقب بذلك بسبب هذه الحكاية.
انظر : الأنساب ٢٥٤/٢ .

الفصل السادس

مظاهر الحياء

إنَّ المتأمل لواقعنا، يجد أنَّنا نختزل الحياء، وفقده في مظاهر معينة محددة، وإذا كانت النصوص النبوية تناولت الحياء بصورة الشاملة فلماذا نختزله نحن ومصيبة فقده في مظاهر معينة لا تتعدى غالباً التركيز على ما يحدث في حياة شباب اليوم وفتياته فحسب؟! وبذلك نمنح كلَّ من هو خارج هذه الدائرة ضوءاً أخضر لاختراق حاجز الحياء وتجاوزه.

فكثير من الأحاديث الشفهية التي قُدر لنا أن نستمع لها - ليس فقط في مجالس العوام، وإنما حتى داخل مجالس من يحسبون على الدين - لا تخضع لميزان الحياء، ولا يمكن أن نفكر بعرضها عليه. وبعض الكلمات المكتوبة التي يُرغمك الزمان الذي تحيا فيه على قراءته لها، سواءً في المجلات، أو الصحف اليومية، أو القنوات الفضائية، وغيرها، وهي تحيى في أثوابٍ مختلفة ما بين فنِّ هابط، ونقد جارح، وثناء مفرط، واستزاق مفضوح... إلخ.

فمن المستبعد أن تجد فيها استحياء ولو حرصت، ومع هذا وفي ظلَّ التصور المختزل سنعجز عن وصفها وغيرها من المظاهر يوماً بأنها كلمات غير حيية، أو طرح لم يستح من قارئه^(١). لذا فإني سأحاول أن أكون شمولياً من خلال التوسع قليلاً في المظاهر، ولم ولن أحصيها فهي أكثر من أن تحصى.

ولقد حرصت على إدراج ما رأيت أنه ظاهرة - مع علمي أنني قد أنازع في بعضها -، وقسمتها على مبحثين، وهي كما يلي:

المبحث الأول: من مظاهر الحياء:

١. أن يُطهرَ المسلم لسانه من الفحش والرذيلة ومعيب الألفاظ - (المسلم من سلم المسلمون من لسانه ويده). فالحياء مستحبٌ في كل ما يصدر عن الإنسان من قول أو عمل؛ والحياء في القول هو أن يطهر الإنسان فمه من الفحش، وأن يتره لسانه من العيب، وأن يخجل من ذكر العورات، فإن من سوء الخلق وسوء الأدب أن يتلفظ الإنسان بالكلمات البذيئة دون أن يحسب حساباً لما ينتج عنها من ردود فعل نحوه ونحو من كان يستمع إلى ألفاظه البذيئة.
٢. القصد في الحديث في المجالس والأماكن العامة، فلا يتكلم إلا فيما يعنيه ويفيده ويخصه (قل خيراً أو اصمت).

(١) بتصرف من مقال: مجلة الأسرة، العدد (١٢١)، بقلم: فاطمة البطاح، بواسطة مقال في الشبكة.

٣. أن يتوقى الإنسان ويتحاشى عن كل ما يجلب له السوء من موارد الشبه ومواطن الإشاعات السيئة. فمن الحياء أن يحرص المسلم على سمعته فلا يقول أو يفعل ما يشوه سمعته، ويعرضه للهزاء والسخرية والاحتقار، ومن مصلحة الإنسان أن تظل سمعته نظيفة نقية بعيدة عن الإشاعات السيئة، والأقاويل المغرضة. قال الأصمعي سمعت أعرابياً يقول: (من كساه الحياء ثوبه لم ير الناس عيبه)^(١).
٤. محافظة المرأة المسلمة على كرامتها وحشمتها، ومراقبة ربها، وحفظها حق بعلها، والبعد عن مسالك الريبة ومواطن الرذيلة.

٥. أن يعرف لأصحاب الحقوق منازلهم ومراتبهم، فيؤتى كل ذي فضل فضله، وإجلال الأكابر واحترامهم، كحال عبد الله بن عمر رضي الله عنهما عندما سأل رسول الله صلى الله عليه وسلم الصحابة يوماً فقال: (إن من الشجر شجرة لا يسقط ورقها، وهي مثل المسلم، حدثني ما هي؟)، فوقع الناس في شجر البادية، ووقع في نفسي أنها النخلة، قال عبد الله: فاستحييت، فقالوا يا رسول الله: أخبرنا بها، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: هي النخلة، قال عبد الله: فحدثت أبي بما وقع في نفسي، فقال: لأن تكون قلتها أحب إلي من أن يكون لي كذا وكذا^(٢).

فاستحيا عبد الله أن يجيب، ويعلل حياءه-كما في رواية البزار وغيره- بأنه كان أصغر القوم وأحدثهم سناً، وفي رواية أنه رأى أبا بكر وعمر لا يتكلمان فكره أن يتكلم^(٣).

٦. أن يستحي المسلم من الخلق فلا يكشف لهم عورة ولا يقصر لهم في حق ولا ينكر لهم معروفاً.
٧. إنكار المنكر وعدم السكوت عنه، و قبول الحق من قائله ولو كان عدواً. وذلك غير مانع له أن يقول حقاً أو يطلب علماً أو يأمر بمعروف أو ينهى عن منكر.

ومن المواقف في ذلك:

● أن قريشا أهمتهم المرأة المخزومية التي سرقت، فقالوا: من يكلم رسول الله صلى الله عليه وسلم، ومن يجترئ عليه إلا أسامة؟!، حب رسول الله صلى الله عليه وسلم. فكلم رسول الله صلى الله عليه وسلم، فقال: فلم يمنع الحياء رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يقول لأسامة في غضب: (أتشفع في حد من حدود الله). ثم قام فخطب، قال: (يا أيها الناس، إنما ضل من كان قبلكم، أنهم كانوا إذا سرق الشريف تركوه، وإذا سرق الضعيف فيهم أقاموا عليه الحد، وأيم الله، لو أن فاطمة بنت محمد سرقت لقطعت محمد يدها)^(٤).

(١) الآداب الشرعية ج ٢/ص ٢٢٠.

(٢) رواه البخاري ٦١/١، برقم (١٣١)، كتاب العلم، باب الحياء في العلم، ومسلم ٢١٦٤/٤، برقم (٢٨١١)، كتاب صفة القيامة والجنة والنار، باب مثل المؤمن مثل النخلة

(٣) انظر: فتح الباري ١/١٤٦.

(٤) متفق عليه رواه البخاري ١٢٨٢/٣، برقم (٣٢٨٨)، كتاب الأنبياء، باب حديث الغار، ومسلم ١٣١٥/٣، برقم (١٦٨٨)، كتاب الحدود، باب قطع السارق الشريف وغيره والنهي عن الشفاعة في الحدود. واللفظ للبخاري.

● ولم يمنع الحياء أم سليم رضي الله عنها أن تحيي إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فتقول: يا رسول الله، إن الله لا يستحيي من الحق، فهل على المرأة من غسل إذا احتلمت؟، قال النبي صلى الله عليه وسلم: (إذا رأت الماء)، فغطت أم سلمة -تعني وجهها- وقالت يا رسول الله: وتحتلم المرأة؟، قال: (نعم تربت يمينك، فبم يشبهها ولدها؟!)(^١). وفي رواية عند مسلم: مثل معناه. وزاد: قالت قلت: فضحت النساء(^٢). .

ولذا قالت عائشة: (نعم النساء نساء الأنصار لم يمنعهن الحياء أن يتفقهن في الدين)(^٣). ومرادهن أن الله لا يأمر بالحياء في الحق، ولا يبيحه؛ وليس المراد بالحياء الحياء الحقيقي، لأن الحياء خير كله، ولا يأتي إلا بخير والإمساك عن السؤال في هذه الحال ليس بخير بل هو شر، فكيف يكون حياء؟! (^٤).

● قال عمر بن الخطاب: لا تزيدوا في مهور النساء وإن كانت بنت ذي الغصة -يعني يزيد بن الحصين الحارثي- فمن زاد ألقى الزيادة في بيت المال. فقالت امرأة من صفة النساء طويلة في أنفها فطس: ما ذاك لك؟، قال: ولم؟، قالت: لأن الله قال: (وآتيتن إحداهن قنطاراً...) الآية، فقال عمر: امرأة أصابت ورجل أخطأ فيه. فلم يمنعه الحياء أن تدافع عن حق النساء، ولم يمنعه عمر أن يعتذر عن الخطأ(^٥).

● قال مجاهد: (لا يتعلم العلم مستحي ولا مستكبر)(^٦).

فهكذا يجب أن يستحي الإنسان من أهله وأصدقائه وأفراد مجتمعه، فلا يقول أو يفعل إلا ما يرضي الله ورسوله.

المبحث الثاني: من المظاهر المنافية للحياء:

وأما هذا البحر الذي لا ساحل له، فمع انفتاح العالم، وانتكاس القيم، أصبح المعروف منكراً، والمنكر معروفاً، ولذا فيصعب على العاد أن يحصرها، ولذا فحسي من القلادة ما أحاط بالعنق: فمن تلك المظاهر:

١. ألا يطرق أبواب المساجد ولا يعرفها، إلا أن يرى مخلوقاً فيستحي منه، وأما حياءً من الله وخوفاً منه فلا تسل.

(١) صحيح البخاري ٦٠/١، برقم (١٣٠)، كتاب العلم، باب الحياء في العلم .

(٢) رواه مسلم ٢٥١/١، برقم (٣١٣)، كتاب الحيض، باب وجوب الغسل على المرأة بخروج المني منه.

(٣) أخرجه البخاري ٦٠/١، كتاب العلم، باب الحياء في العلم، ومسلم ٢٦١/١، برقم (٣٣٢)، كتاب الحيض، باب استحباب استعمال المغسلة من الحيض فرصة من مسك في موضع الدم .

(٤) انظر: فتح الباري ٣٨٩/١، شرح النووي على صحيح مسلم ٢٢٤/٣.

(٥) أخرجه ابن كثير في تفسيره ٢١٣/٢، وفيه انقطاع. وابن القيسراني في ذخيرة الحفاظ ٩٢٩/٢، بسند مشهور. وابن حجر في الفتح ١١١/٩، بسند منقطع.

(٦) رواه البخاري ٦٠/١، كتاب العلم، باب الحياء في العلم .

٢. من لا يعرف القرآن، بل إنه قد يحترم صورة فاجرة، ويكرمها، وهو بذلك يهين كتاب الله، ومع ذلك تجده غير مبالٍ.
٣. من أدخل في بيته الفضائيات، وعرضها في بيته فسمح لنفسه ونسائه وأبنائه بالنظر إلى مناظر الفجور وقتل الأخلاق وإثارة الشهوة والدعوة إلى الفحشاء والمنكر.
٤. من اشترى الأفلام الخليعة، وعرضها في بيته أمام نسائه وأولاده بما فيها من مناظر الفجور، وقتل الأخلاق، وإثارة الشهوة، والدعوة إلى الفحشاء والمنكر.
٥. ومن الصور المهمة في ذلك: ما ظهر في كثير من النساء من الخروج إلى الأسواق متطيبات بمتجملات لا بسات لأنواع الحلي والزينة ومخالطتهن بالرجال الأجانب بحجاب رقيق وزينة فاتنة وطيب ذي رائحة فواحة، وعدم التستر والحجاب، لا يبالين بنظر الرجال إليهن، بل ربما يفتخرن بذلك، ومنهن من تغطي وجهها في الشارع وإذا دخلت المعرض كشفت عن وجهها وذراعيها عند صاحب المعرض؛ لتطمع الذي في قلبه مرض.
٦. تحدث المرأة بما يقع بينها وبين زوجها من الأمور الخاصة. وقد وصف النبي من يفعل ذلك بشيطان أتى شيطانه في الطريق والناس ينظرون، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (عسى أحدكم يخبر بما صنع بأهله، وعسى إحداكن أن تخبر بما صنع بها زوجها) فقامت امرأة سوداء فقالت: يا رسول الله إنهم ليفعلون وإنهم ليفعلن، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (ألا أخبركم بمثل ذلك مثل ذلك؟)، كمثل الشيطان لقي شيطانه فوقع عليها في الطريق والناس ينظرون، فقضى حاجته منها، والناس ينظرون) ^(١).
٧. تبسط بعض النساء بالتحدث مع الرجل الأجنبي مثل البائع وتلين القول له وترقيق الصوت من أجل أن يخفض لها سعر البضاعة.
٨. تشبه النساء بالرجال، وكذلك تشبه الرجال بالنساء، وهذا فعل مستقبح تأباه الفطرة السليمة والذوق والحياء وحرمة الشرع ونهى عنه.
٩. لبس الملابس شديدة الضيق اللاصقة أو الملابس المفتحة من الأعلى والأسفل حتى وصلت إلى حدود العورات المغلظة فلم يراعوا ديناً ولا حياءً ولا مروءة.
١٠. أكل أموال المسلمين، من يتامى وأرامل وخدم وعمال مع إنعام الله عليه بكثرة الأموال والخيرات.
١١. التاجر الذي يخدع الزبائن، ويدلس في السلع، ويكذب على الناس.
١٢. من استدان الأموال الكثيرة من خلق الله ثم هو يماطل بعد ذلك في ردها مع قدرته على ذلك.
١٣. من إذا خالط الناس أظهر لهم الحسن وما يحبونه منه، وإذا خلى بربه أظهر له القبيح وانتهك حرمة ربه.

(١) رواه ابن أبي شيبة ٣٩/٤، برقم (١٧٥٦٠)، ونحوه الطبراني في الكبير ١٦٢/٢٤، برقم (٤١٤).

١٤. من يُعامل الناس والأصحاب بمكارم الأخلاق ثم هو ييخل بما على والديه وزوجته وأولاده فلا يجدون منه إلا الفظاظة والغلظة.

١٥. من أنعم الله عليه بالمال الكثير ثم هو يسخره في شهوات وملذات محرمة حتى إذا ما دعي للإنفاق في سبيل الله يخل وقتراً على نفسه.

١٦. الشغف باستماع الأغاني والمزامير الماجنة، وتدنيس السمع بما حوت من فسوق ومجون وتعريض للزنا ودعوة إليه، وما يلحق به من الزنا ونحوه. ولو رأى المُقارِفُ لها قبحها لهرب إلى الموت خجلاً واستحياءً.

١٧. من جاهر ربه بالتدخين، في مجامع الناس، ليكون معول هدم لأبناء المسلمين.

١٨. من أضاع أبنائه في الحياة بلا تربية ولا خلق، ومن أضاعهم في الشوارع يخالطون من شاؤوا ويصاحبون ما هب ودب من ذوي الأخلاق السيئة، ليسبحون في الأرض يؤذون المسلمين ويتبعون عوراتهم، أو يضايقون الناس في طرقهم، أو يهددون حياتهم بالعبث بالسيارات.

١٩. استقدام بعض الناس النساء الأجنبية السافرات أو الكافرات وخلطهم لهن مع عوائلهم داخل بيوتهم وجعلهن يزاوِلن الأعمال بين الرجال، وربما يستقبلن الزائرين، ويقمن بصب القهوة للرجال. أو استقدامهم للرجال الأجانب سائقين وخدامين، يطلعون على محارمهم ويخلون مع نسائهم في البيوت وفي السيارات في الذهاب بهم إلى المدارس والأسواق.

٢٠. العشق والتعلق بغير الله، وما يُصاحب ذلك من المظاهر المنافية بحبة الله عز وجل، وتقديره في القلب.

والذي حمل هؤلاء على التزول إلى هذه المستويات الهابطة هو ذهاب الحياء فـ(إذا لم تستح فاصنع ما شئت).

فيا له من قبح عندما يُلبس لباس الإيمان، ولباس التقوى، ولباس الفضيلة، فيستكبر المرء، ويتزعه، ليلبس القبيح من كل منكر من القول والعمل، ويتولى ويدبر إلى مستنقع الرذيلة والجحيم، وعند ما يُلبس لباس العلم بالله، فيستكبر، ويتزعه، ويلبس لباس الجهل، والبهيمية. وعندما يستبعد لقاء الله، وهو منه قريب. فأين الحياء من الله عز وجل؟!.

فحريٌّ بالإنسان أن يلتفت إلى نفسه؛ ليستخرج منها العفن والوقاحة... إلى نعيم الطهر والتزاهة، إلى حنة الدنيا بالتقى، والعلم، وحنة الآخرة.. (١)

الفصل السابع

وسائل اكتساب الحياء وتنميته

فقد سبق ذكرُ ما للأخلاق الفاضلة والحياء من منزلة رفيعة في الدين، وما لها من ارتباط قوي بقوة الإيمان وكماله، وتدين الإنسان والتزامه، وما لها من عظيم الأثر في قوة الأمة ووحدة صفوفها؛ ولأن الأخلاق عامة ومنها الحياء على رأس الهرم يمكن اكتسابها، كان من المهم ونحن نتناوله بالبحث الحديث عن وسائل اكتسابه، وطُرق تنميته، فقد قال الإمام أبو حاتم -رحمه الله-: (الواجب على العاقل أن يعود نفسه لزوم الحياء من الناس) ^(١).

فالحديث عن الأخلاق وفضلها والتغني بها وسرد جمالها وثمارها سهل وميسور وكل يدرك ذلك، ولكن تبقى مسألة التطبيق الفعلي بصير واحتساب ^(٢)؛ ولذا فسأتناول في هذا المبحث ما استطعت الوقوف عليه من تلك الوسائل الخاصة بالحياء، وأما وسائل اكتساب الأخلاق الحسنة عامة فلم أذكر منها إلا ما أرى أنه لازم لا يُستغنى عنه؛ فهي كثيرة دون حصرها القِتَاد، كما أنها مما أُفردت فيها مصنفات خاصة فلترجع في مطالعها.

أقول: لا ريب أن أثقل ما على الطبيعة البشرية تغيير الأخلاق التي طبعت عليها النفس، إلا أن ذلك ليس متعذراً ولا مستحيلاً، فقد غيّر الصحابة أديانهم ومعتقداتهم وهي أصعب ما يمكن تغييره. ولا اكتساب الأخلاق أسباب ووسائل يستطيع الإنسان من خلالها أن يكتسب حسن الخلق، واكتسابه يحتاج إلى نية صادقة وعلم نافع، قال الصنعاني -رحمه الله-: (والحياء وإن كان قد يكون غريزة فهو في استعماله على وفق الشرع يحتاج إلى اكتساب، وعلم، ونية؛ فلذلك كان من الإيمان) ^(٣). ومن تلك الوسائل المعينة على اكتساب الحياء والتحلي به:

١. الدعاء: وهو سلاح المؤمن، فيلجأ إلى ربه، ليرزقه الحياء، ويصرف عنه سيء الأخلاق، وقد كان النبي صلى الله عليه وسلم يقول في دعاء الاستفتاح: (... واهدني لأحسن الأخلاق لا يهدي لأحسنها إلا أنت. واصرف عني سيئها لا يصرف عني سيئها إلا أنت) الحديث ^(٤).
- وكان يقول: (اللهم إني أعوذ بك من منكرات الأخلاق والأعمال والأهواء) ^(٥). ولا ريب أن الحياء من الأخلاق الحسنة.

(١) روضة العقلاء ، ٥٨/١ .

(٢) في ظلال التربية ، ص ١١ .

(٣) سبل السلام ، ٢٠٦/٤ .

(٤) رواه مسلم ، ٥٣٥/١ ، برقم (٧٧١) ، كتاب صلاة المسافرين وقصرها ، باب الدعاء في صلاة الليل وقيامه .

(٥) رواه الترمذي ٥٧٥/٥ ، برقم (٣٥٩١) ، كتاب الدعوات عن رسول الله صلى الله عليه وسلم ، باب دعاء أم سلمة . وقال : الترمذي هذا حديث حسن غريب .

٢. مراقبة الله تعالى في السر والعلن: ومن ثم فيقوى الإيمان في القلب بزيادة الطاعات واجتناب المنكرات. قال المحاسبي: (المراقبة علم القلب بقرب الرب، كلما قويت المعرفة بالله قوي الحياء من قربهِ ونظره) ^(١).

وقد سبق أن ذكرنا أن النبي صلى الله عليه وسلم وصى رجلاً أن يستحي من الله كما يستحي من رجل صالح من قومه. قال بعضهم: (استح من الله على قدر قربهِ منك، وخف الله على قدر قدرته عليك) ^(٢).

وقال الغزالي: (وأما بالمعنى الثاني-يعني: اليقين- وهو المقصود فهو عزيزٌ يختص به الصديقون، وثمرته أن يكون الإنسان في خلوته متأدباً في جميع أحواله... ويكون في فكرته الباطنة كهو في أعماله الظاهرة إذ يتحقق أن الله تعالى مُطلّعٌ على سريره... وهذا المقام في اليقين يورث الحياء، والخوف، والانكسار، والذل، والاستكانة، والخضوع، وجملةً من الأخلاق الحمودة) ^(٣).

وقال ابن القيم-رحمه الله- عن الله عز وجل: (فإن العبد متى علم بنظره إليه، ومقامه عليه، وأنه بمراى منه، ومسمع، وكان حياً، استحيى من ربه أن يتعرض لمساخطه) ^(٤).

كما أن تذكر الإنسان لما اقترفه من المعاصي والتجاوزات في حق الله، واستحضاره لها مما يعينه على الحياء من الله ومراقبته، قال الشيخ عبد الرحمن السعدي-رحمه الله-: (وإن رأى نفسه مقصراً في أمرٍ من أوامر الله بذل جهده واستعان بربه في تكميله وإتقانه ويقايس بين ممن الله عليه وإحسانه وبين تقصيره فإن ذلك يوجب له الحياء لا محالة) ^(٥).

قال الجنيد-رحمه الله-: (الحياء رؤية الآلاء، ورؤية التفصيل فيتولد بينهما حالة تُسمى: الحياء) ^(٦).
قال عمرو بن عثمان: (فدوام المراقبة يفشي الحياء، ويمده، ويزيد فيه...) ^(٧).

٣. المجاهدة: فإن الخلق الحسن ومنه الحياء نوعٌ من الهداية، يحصل بالمجاهدة، قال الله عز وجل:
﴿وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا وَإِنَّ اللَّهَ لَمَعَ الْمُحْسِنِينَ﴾ ^(٨).

ولا تعني المجاهدة أن يجاهد المرء نفسه مرة، أو مرتين، أو أكثر، بل تعني أن يجاهد نفسه حتى يموت؛ ذلك أن المجاهدة عبادة، فتدخل في عموم قول الله تعالى: ﴿وَأَعْبُدْ رَبَّكَ حَتَّى يَأْتِيَكَ الْيَقِينُ﴾ ^(٩).

(١) الإخلاص، ص ٥٠.

(٢) كلمة الإخلاص، ص ٥٠.

(٣) إحياء علوم الدين، ١/٧٥.

(٤) طريق المهجرتين، ١/٤٠٨.

(٥) تفسير السعدي، ١/٨٥٣.

(٦) شرح النووي على صحيح مسلم، ٢/٥.

(٧) حلية الأولياء، ١٠/٢٩٥.

(٨) سورة العنكبوت، آية ٦٩.

(٩) سورة الحجر، آية ٩٩.

٤. المحاسبة: وذلك بنقد النفس إذا ارتكبت ما يخلُّ بالحياء، وحملها على ألا تعود إليه مرة أخرى، مع أخذها بمبدأ الثواب، فإذا أحسنت أراحها، وأرسلها على سجيئتها بعض الوقت في المباح. وإذا أساءت وقصّرت أخذها بالحزم والجد، وحرّمها من بعض ما تريد؛ فإن ذلك يؤدي إلى تعديل سلوك المرء نحو الأفضل^(١).

٥. التفكير بمعرفة الله عز وجل: وذلك من خلال أسمائه وصفاته التي تستوجب مراقبته، كالرقيب والشهيد والعليم والسميع والبصير، فإن أمعن وأكثر من ذلك نما في قلبه تعظيم الله عز وجل. قال حاتم الأصم: (تعاهد نفسك في ثلاث مواضع: إذا عملت: فاذا ذكر نظر الله تعالى عليك، وإذا تكلمت: فانظر سمع الله منك، وإذا سكت: فانظر علم الله فيك)^(٢).

وقال بعضهم: (صدق الإيمان التعظيم لله؛ وثمرته الحياء من الله)^(٣).

ثم إذا عظم الله عز وجل في القلب، وراقبه العبد، وعبدته كأنه يراه، كان من أهل الإحسان، والمعتنين بأعمال القلوب من السلف يجعلون الإحسان على مقامين: مقام المشاهدة والمراقبة. فكلما عظم مقام المشاهدة أو المراقبة حسُنَ العمل. وأعلى من مقام المراقبة مقام المشاهدة، والمقصود بالمشاهدة: مشاهدة الصفات لا مشاهدة الذات؛ لأن الصوفية والضُّلال هم الذين جعلوا ذلك مدخلا لمشاهدة الذات -زعموا-، وهذا من أعظم الباطل والبهتان، وإنما الممكن مشاهدة الصفات، ويُعنى بها مشاهدة آثار صفات الله -جل وعلا- في خلقه.

فإن العبد المؤمن كلما عظم علمه وعظم يقينه بصفات الله -جل وعلا- وبأسمائه أرجع كل شيء يحصل في ملكوت الله إلى اسم من أسماء الله -جل وعلا- أو إلى صفة من صفاته.

فإذا رأى حسناً أمامه أرجعه إلى صفة من صفات الله وإلى أثر من آثار أسمائه الحسنى في ملكوته، وإذا رأى سيئاً أرجعه إلى صفة من صفاته، وهكذا...، فأَيُّ حالة يراها في السماء أو في الأرض فإن مقام مشاهدته لصفات الله يقتضي أنه يُرجع كل شيء يراه إلى آثار أسماء الله -جل وعلا- وصفاته في خلقه.

وهكذا يحصل هذا المقام لمن عظمَ علمه بأسماء الله ﷻ وبصفاته وبأثرها في ملكوته، فيأتي لعظم علمه بذلك فيشهد صفة إحاطة الله -جل وعلا- بالعبد، وأنَّ الله -جل وعلا- رقيب عليه، محيطٌ به، وأنه شاهد عليه، فيعظم ذلك في نفسه حتى يستحي أن يكشف عورته في خلوة لا يراه إلا هو -كما جاء في الحديث-، فقد قال النبي صلى الله عليه وسلم في كشف العورة: (إن الله أحق أن يستحي منه)^(٤)؛ كلُّ هذا لأجل مقام المشاهدة العظيم^(٥).

(١) في ظلال التربية، ص ١١، بتصرف.

(٢) حلية الأولياء ٧٥/٨، سير أعلام النبلاء، ٤٨٥/١١.

(٣) التعرف لمذهب أهل التصوف، ٨٢/١.

(٤) سيأتي تفريجه.

(٥) انظر: شرح الأربعين النووية، ص ٤٢-٤٤.

٦. معرفة أهمية الخلق في الإسلام والتفكر في الآثار المترتبة عليها: ومن ذلك الحياء خاصة والأخلاق الحسنة بعامة؛ فإن معرفة ثمرات الأشياء، واستحضار حسن عواقبها؛ من دواعي فعلها، وتمثلها، والسعي إليها. والمرء إن رغب في مكارم الأخلاق، وأدرك أنها من أولى ما اكتسبته النفوس، وأجل غنيمة غنمها الموفقون؛ سهل عليه نيلها واكتسابها. -وقد مرَّ معنا شيء من تلك الأهمية من خلال النصوص الشرعية-، وإلا فحصرها دونه خرط القتاد وفث الأكباد.

٧. النظر في عواقب التخلي عن الحياء: وذلك بتأمل ما يجلبه التخلي عنه من الأسف الدائم، والهم الملازم، والحسرة والندامة، والبغضة في قلوب الخلق؛ فذلك يدعو المرء إلى أن يقصر عن مساوئ الأخلاق، ويبعته على التحلي به، والتلبس بمحاسن الأخلاق.

٨. الحذر من اليأس من إصلاح النفس: فهناك من إذا ابتلى بشيء مما يُسيء الأخلاق وحاول التخلص منه فلم يفلح، أيس من إصلاح نفسه، وترك المجاهدة، وهذا الأمر لا يحسن بالمؤمن القوي، بل ينبغي عليه أن يقوي إرادته، وأن يسعى لتكميل نفسه، وأن يُجدَّ في تلافي عيوبه؛ فكم من الناس من تبدلت حاله، وسمت نفسه، وقلت عيوبه، بسبب مجاهدته، وسعيه، وجده، ومغالbته لطبعه؟!.

٩. شكر النعم: فإن نعم الله تعالى على عباده تترى، وأفضاله على خلقه لا تحصى، والله يقول: ﴿لَئِنْ شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ﴾^(١). وبالتالي فإن الإنسان إذا تأمل في نعم الله عليه وتقبله فيها، أدى ذلك إلى حيائه من الله -عز وجل-، قال ابن حجر -رحمه الله-: (وقد يتولد الحياء من الله تعالى من التقلب في نعمه، فيستحي العاقل أن يستعين بها على معصيته)^(٢).
قَالَ الْجُنَيْدُ -رحمه الله-: (الْحَيَاءُ رُؤْيَاُ الْآلَاءِ ، وَرُؤْيَاُ التَّقْصِيرِ فَيَتَوَلَّدُ بَيْنَهُمَا حَالَةٌ تُسَمَّى : الْحَيَاءَ)^(٣).

١٠. مداومة القراءة في فضائل الحياء، وما يُرغب فيه، وقراءة كتب الشمائل والأخلاق: فإنها تُنبه الإنسان على مكارم الأخلاق، وتذكّره بفضائلها، وتعينه على اكتسابها، وترديد ذلك في القلب، وجمعُ الهمة على تحصيله، والصبر ومجاهدة النفس على التحلي به دون مللٍ أو كلالٍ.

١١. مخالطة الصالحين، والتخلق بأخلاقهم: قال مجاهد: (إنَّ المسلم لو لم يُصبْ من أخيه إلا أن حيائه منه يمنعه من المعاصي لكفاه)^(٤). والمرء فطرةً مولعٌ بمحاكاة من حوله، شديدُ التأثر بمن يصاحبه.

فالصدّاقة المتينة لا تحلُّ في نفسٍ إلا هذبت أخلاقها الذميمة. فإذا كان الأمر كذلك فحرِّيُّ بالمرء أن يبحث عن إخوان صدقٍ؛ يعينوه على كلِّ خير، ويقصروه عن كلِّ شر.

(١) سورة إبراهيم ، آية ٧ .

(٢) فتح الباري ، ٧٥/١ .

(٣) شرح النووي على مسلم ، ٥/٢ .

(٤) رواه البيهقي في شعب الإيمان ، ٥٠٤/٦ ، وابن أبي شيبة ، ٢١٥/٧ ، برقم (٣٥٤٥١) ، وأبو نعيم في حلية الأولياء ٢٨٠/٣ ، ومكارم الأخلاق ٤١/١ .

ومنه الاختلاف إلى أهل الحلم والفضل وذوي المروءة: فاختلاف المرء إلى مثلهم، والإكثار من لقائهم؛ مما يعين على التخلُّق بأخلاقهم، والقبس من سمتهم ودلهم. يُروى أنَّ الأحنف بن قيس قال: (كنا نختلف إلى قيس بن عاصم نتعلم الحلم، كما نختلف إلى العلماء نتعلم العلم)^(١).

ولا يلزم أن يكون أولئك من أهل العلم، بل قد يوجد من العوام من جُبِلَ على كريم الخلال، وحמיד الخصال، قال ابن حزم-رحمه الله-: (وقد رأيت من غمار العامة من يجري من الاعتدال، وحميد الأخلاق إلى ما لا يتقدمه فيه حكيم عالم راض لنفسه، ولكنه قليل جداً. ورأيت ممن طالع العلوم، وعرف عهود الأنبياء عليهم السلام، ووصايا الحكماء، وهو لا يتقدمه في خبث السيرة، وفساد العلانية، والسريرة، شرار الخلق وهذا كثيرٌ جداً فعلمت أنهما مواهب وحرمان من الله تعالى)^(٢). فمجالستهم مما يعين على الكفِّ عن المعاصي.

وهذا مما عُلِمَ بالتجربة في مجال التربية، فإنَّ المتربي قد يكون في بداية أمره لا يملك حياءً غريزياً، أو أنَّ عنده حياءً غريزياً ناقصاً، ثم ينشأ في جو يُنمِّي بواعث الحياء في قلبه، ويدله على خصال الحياء، فإن هذا المتربي سيكتسب الحياء شيئاً فشيئاً، ويقوى الحياء في قلبه بالتوجيه والتربية حتى يصبح الحياء خلقاً ملازماً له، قال ابن القيم: (وَمِنْ كَلَامِ الْحُكَمَاءِ أَحْيَاوُا الْحَيَاءَ بِمُجَالَسَةِ مَنْ يُسْتَحْيِي مِنْهُ، وَعِمَارَةُ الْقَلْبِ بِالْهَيْبَةِ وَالْحَيَاءِ، فَإِذَا ذَهَبَا مِنَ الْقَلْبِ لَمْ يَبْقَ فِيهِ خَيْرٌ). وهذا الكلام بديع المعنى بعيد الفقه، حيث أنَّ كثرة مجالسة من لا يُستحيا منه؛ لقلّة قدره ومروءته، أو غيرها، تخلق في النفس نوعٌ تجانسٍ معهم، ثم إنَّ قلّة قدرهم عنده تجعله لا يستحي منهم، فيصنع ما يشاء بحضرة تلك الجماعة، فتضعف عنده خصلة الحياء شيئاً فشيئاً، فيتعوّد أن يصنع ما يشاء أمام الناس جميعاً. أما مجالسة من يُستحيا منه؛ لصلاحهم، وعلو قدرهم، فإنها تحيي في القلب الحياء. فيظل الإنسان يراقب أفعاله وأقواله قبل صدورها حياءً ممن يجالسهم، فيكون هذا خلقاً له ملازماً، فتعود نفسه إتيان الخصال الحمودة، ومجانبة الخصال المذمومة.

فمجالس الأخيار تقوي الحياء المكتسب وتنميّه، أما مجالسة الأردال فإنها تحول بين العبد وبين اكتساب الحياء.

١٢. مطالعة سير الصالحين من القدوات الكبار: وعلى رأس الهرم سيرة نبينا محمد صلى الله عليه وسلم: فإن إدامة النظر فيها يضع بين يدي قارئها أعظم صورة عرفتها الإنسانية، وأكمل هدي وخلق في حياة البشرية، والله تعالى يقول: ﴿لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُوا اللَّهَ وَالْيَوْمَ

الْآخِرَ وَذَكَرَ اللَّهَ كَثِيرًا﴾^(٣).

(١) شعب الإيمان ، ٣٥٨/٦ .

(٢) مداواة النفوس ، ٢٥/١ .

(٣) سورة الأحزاب ، آية ٢١ .

وقال : ﴿ وَإِنَّكَ لَعَلَى خُلُقٍ عَظِيمٍ ﴾ ^(١) . قال ابن حزم -رحمه الله- : (من أراد خير الآخرة، وحكمة الدنيا، وعدل السيرة، والاحتواء على محاسن الأخلاق كلها، واستحقاق الفضائل بأسرها؛ فَلْيَقْتَدِ بِمُحَمَّدٍ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وليستعمل أخلاقه، وسيره ما أمكنه، أعاننا الله على الإتساء به بمنه آمين) ^(٢) .

ثم الأنبياء والرسل عليهم الصلاة والسلام. وبعدهم الصحابة الكرام رضي الله عنهم، فهم أعلام الهدى، ومصابيح الدجى، وهم الذين ورثوا عن رسول الله صلى الله عليه وسلم هديه، وسمته، وخلقه، ودله، فالنظر في سيرهم، والاطلاع على أحوالهم يبعث على التأسي بهم، والإقتداء بهمديهم. والتابعين بعدهم ومن تبعهم من سلف هذه الأمة الأبرار .

وقراءة سير أهل الفضل والحلم، والنظر في تراجمهم عامةً مما يُحرك العزيمة على اكتساب المعالي، ومكارم الأخلاق؛ ذلك أن حياهم توحى إلى القارئ بالافتداء بهم، والسير على منوالهم.

١٣. علو الهمة: فعلو الهمة يستلزم الجد، ونشدان المعالي، والترفع عن الدنيا ومحقرات الأمور. ولا يزال بصاحبه يزجره عن مواقف الذل، واكتساب الرذائل، وحرمان الفضائل حتى يرفعه من أدنى درجات الحضيض إلى أعلى مقامات الجود والسؤدد، قال ابن القيم -رحمه الله- : (فمن علت همته، وخشعت نفسه اتصف بكل خلق جميل، ومن دنت همته، وطغت نفسه اتصف بكل خلق رذيل) ^(٣) .

وقال: (فالنفوس الشريفة لا ترضى من الأشياء إلا بأعلاها، وأفضلها، وأحمدها عاقبة. والنفوس الدنيئة تحوم حول الدنات وتقع عليها كما يقع الذباب على الأقدار. فالنفس الشريفة العلية لا ترضى بالظلم، ولا بالفواحش، ولا بالسرقة، والخيانة؛ لأنها أكبر من ذلك وأجل. والنفس المهينة الحقيرة والخسيسة بالضد من ذلك) ^(٤) . فإن علت همة المرء، وحرص على اكتساب الفضائل، وألزم نفسه على التخلص بالحاسن، ولم يرض من منقبة إلا بأعلاها، ولم يقف عند فضيلة إلا وطلب الزيادة عليها، وفي مقدمة تلك الفضائل والحاسن سمة الحياء، كان حرصه ذلك من أكبر الأسباب المعينة على التحلي بها.

١٤. الصبر: فالصبر من الأسس التي يقوم عليها الخلق الحسن، فهو يحمل على الاحتمال، وكظم الغيظ، وكف الأذى، والحلم، والأناة، والرفق، وترك الطيش والعجلة.

وَقُلْ مَنْ جَدَّ فِي أَمْرِ يَطَالِبُهُ فَاسْتَصْحَبَ الصَّبْرَ إِلَّا فَازَ بِالظَّفَرِ ^(٥)

١٥. العفة: فهي مما يحمل على اجتناب الرذائل من القول والفعل، من الفحش، والبخل، والكذب، والغيبة، والنميمة...، وتحمل على الحياء وهو رأس كل خير.

قال الغزالي-رحمه الله- : (وأما خلق العفة فيصدر منه السخاء والحياء والصبر والمساحة والقناعة والورع واللطافة والمساعدة والظرف وقلة الطمع) ^(٦) .

(١) سورة القلم ، آية ٧ .

(٢) مداواة النفوس ، ٢٤/١ .

(٣) الفوائد ، ١٤٤/١ .

(٤) الفوائد ، ١٧٧/١ - ١٧٨ .

(٥) السحر الحلال ، ٦٥/١ ، الصناعتين الكتابة والشعر ، ٣٩١/١ .

(٦) إحياء علوم الدين ، ٥٥/٣ .

١٦. التواصي بحسن الخلق عامة والحياء خاصة: وذلك بيث فضائلها، وبالتحذير من مساوئها، وينصح المبتلين بسوء الخلق، وبتشجيع حَسَنِي الأخلاق، فحسن الخلق من الحق، والله يقول: ﴿وَتَوَاصَوْا بِالْحَقِّ وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ﴾^(١).

١٧. معرفة أحوال الناس ومراعاة عقولهم وطبائعهم من خلال مخالطتهم، ومعاملتهم بمقتضى ذلك: فهذا الأمر مما يعين على اكتساب الحياء، فالرجل العاقل يحكم هذا الأمر، وينتفع به عند لقائه بالناس، فتراه يزن عقول من يلاقونه، فيتيسر له أن يسايرهم إلا أن ينحرفوا عن الرشد، ويتحامى ما يؤلمهم إلا أن يتألموا من صوت الحق، ومن ثم يترك ما كان ذمياً فيهم ويعمل بما كان طيباً فيهم.

١٨. قراءة القرآن بتدبر وتعقل: فهو الهدى والنور، وهو كتاب الأخلاق ودستورها الأول، وهو الذي يهدي للتي هي أقوم، وحسن الخلق من جملة ما يهدي إليه القرآن. وفيه من الوصايا العظيمة الجامعة التي لا توجد في غيره، كما أن فيه الكثير من الأسس والقواعد والأطر للبناء الخلقي، والتي لو أخذت بها البشرية لتغير مسارها، ولاستنارت سبلها، بل إن آية واحدة في القرآن جمعت مكارم الأخلاق، وهي قوله تعالى: ﴿خُذِ الْعَفْوَ وَأْمُرْ بِالْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ الْجَاهِلِينَ﴾^(٢). ومن جملة ما اشتمل عليه ما يتصل بالحياء فهو رأس مكارم الأخلاق - كما سبق عن عائشة رضي الله عنها -.

١٩. التخلص من هوى النفس وسلطانها: فإنه مما يُسهم في بقاء القلب عامراً بتقوى الله، ومقبلاً عليه، والمبادرة إلى مرضاته، قال الغزالي - رحمه الله: (فكل ذلك لتصاعد دخان الهوى إلى القلب حتى يظلم وتنطفئ منه أنواره، فينطفئ نور الحياء، والمروءة، والإيمان، ويسعى في تحصيل مراد الشيطان)^(٣).

٢٠. تزكية النفس بالطاعة: فهذا من أعظم ما يكسب الأخلاق الفاضلة، قال تعالى: ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَنْ زَكَّاهَا﴾^(٤). وقال: ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَنْ تَزَكَّى﴾^(٥).

٢١. نماء العقل وسمو الأهداف والأفكار: فكلما سما المرء بعقله جره ذلك إلى حُسْن الخلق، والتحلي بمكارم الأخلاق، وفي مقدمتها الحياء، قال الغزالي - رحمه الله: (فأقل آثار العقل الحياء عن فضيحة الاجترار)^(٦).

٢٢. الوفاء للخالق والوفاء للخلق: فإن من اتصف به أحجمه عن سوء الفعال، وديء الخصال، قال الإمام أبو حاتم - رحمه الله: (ولا حياء لمن لا وفاء له، ولا وفاء لمن لا إخاء له، ومن قل حياؤه صنع ما شاء وقال ما أحب)^(٧).

(١) سورة العصر، آية ٣.

(٢) سورة الأعراف، آية ١٩٩.

(٣) إحياء علوم الدين، ٤٧/٣.

(٤) سورة الشمس، آية ٩.

(٥) سورة الأعلى، آية ١٤.

(٦) فضائح الباطنية، ١١٢/١.

(٧) روضة العقلاء، ٥٩/١.

* وللاستزادة انظر: سوء الخلق، ص ٩١-١٥١.

الفصل الثامن

آثار الأخلاق، والحياء على المجتمع والفرد

إِنَّ الْحَيَاءَ بِمَعْنَاهُ الشَّرْعِيُّ مَطْلُوبٌ ، وَقَدْ حَثَّ عَلَيْهِ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَرَغَّبَ فِيهِ ، لِأَنَّهُ بَاعِثٌ عَلَى أَفْعَالِ الْخَيْرِ وَمَانِعٌ مِنَ الْمَعَاصِي ، وَيَحُولُ بَيْنَ الْمَرْءِ وَالْقَبَائِحِ ، وَيَمْنَعُهُ مِمَّا يُعَابُ بِهِ وَيَذُمُّ ، فَإِذَا كَانَ هَذَا أَثَرُهُ فَلَا شَكَّ أَنَّهُ خُلِقَ مَحْمُودٌ ، لَا يُنْتَجِ إِلَّا خَيْرًا ، فَالَّذِي يَهُمُّ بِفَعْلٍ فَاحِشَةٍ فَيَمْنَعُهُ حَيَاؤُهُ مِنْ اجْتِرَاحِهَا ، أَوْ يَحْتَدِي عَلَيْهِ سَفِيهَةً فَيَمْنَعُهُ حَيَاؤُهُ مِنْ مُقَابَلَةِ السَّيِّئَةِ بِالسَّيِّئَةِ ، أَوْ يَسْأَلُهُ سَائِلٌ فَيَمْنَعُهُ حَيَاؤُهُ مِنْ حِرْمَانِهِ ، أَوْ يَضُمُّهُ مَجْلِسٌ فَيَمْسِكُ الْحَيَاءُ بِلِسَانِهِ عَنِ الْكَلَامِ ، وَالْخَوْضِ فِيهَا لَا يَعْنِيهِ ، فَالَّذِي يَكُونُ لِلْحَيَاءِ فِي نَفْسِهِ هَذِهِ الْآثَارُ الْحَسَنَةُ ، فَهُوَ ذُو خُلُقٍ مَحْمُودٍ ^(١).

بل إن آثار الحياء تتعدى ذلك بكثير ، فكما أنها مؤثرة على المتحلي بها فهي كذلك مؤثرة على المجتمع بآثره . ولقد جرت عادة المصنفين أن يذكر الثمرة الناجمة عن المصنف فيه ، كهدف له ، ومن هذا الباب رأيت أن من العناصر المحورية في الموضوع ذكر الآثار والثمار المترتبة على الحياء . ورأيت أن أقسم هذه الآثار والثمار إلى مبحثين :

المبحث الأول : آثار الأخلاق على المجتمع والأمة والفرد :

المطلب الأول : بالنسبة للمجتمع والأمة :

فإن مما يثمره الحياء على مستوى الأمة والمجتمع — على سبيل المثال لا الحصر — :

أ — قوة الأمة والزيادة في إنتاجها : فالأخلاق أساس قيام الحضارات ، وكثرة القوانين والنظم في مجتمع ما ، دليل على فساد وانحطاطه . وقد أثبتت التجربة أن العقائد والأخلاق والآداب هي المحرك الأساسي للمجتمع الصالح . وكثرة القوانين لا تصحح مسيرة المجتمع لكنها تفتح أبواباً جديدة للفساد ، لكنه هذه المرة موجه نحو الذين يقومون على تنفيذ القوانين المعقدة ^(٢) .

وحين يصاب المجتمع بالشلل الأخلاقي يكون قد فقد الأساس الذي يقوم عليه الكثير من أنشطته الاجتماعية ، والأساس الذي تبنى عليه الثقة بين الناس ، وأنداك يفقد فاعليته الفكرية والروحية وإن كانت إمكاناته الحضارية في نمو وتوسع ^(٣) .

ولذا فإننا لا نستطيع الاستمرار في اتباع الطرق الصحيحة في الإنتاج ، والتطور ، إذا لم نملك أخلاقية عميقة ، وعادات متأصلة في ذواتنا ^(٤) .

(١) الموسوعة الفقهية ٢٦٢/١٨ .

(٢) بصائر في العلم والثقافة ، ٦١/٥ " بتصرف " .

(٣) بصائر في العلم والثقافة ، ٣١/٥ " بتصرف " .

(٤) بصائر في العلم والثقافة ، ٣٩/١ " بتصرف " .

ب- كثرة الرزق والبركة من الله تعالى في الديار وال عمران: فعن عائشة أن النبي صلى الله عليه وسلم قال لها: (إنه من أعطي حظه من الرفق فقد أعطي حظه من خير الدنيا والآخرة، وصلة الرحم، وحسن الخلق، وحسن الجوار، يعمران الديار ويزيدان في الأعمار) ^(١).

ج- احترام سائر الأمم لهذه الأمة، وجعلها قدوة لهم.

د- هيبة سائر الأمم لهذه الأمة.

هـ - أنها سبب في بقاء الأمة ورفقيها، وتكون بذلك أسرع من باقي الأمم ^(٢): قال الشنقيطي-رحمه الله:- (وقد أخذت قضية الأخلاق عامة وأخلاقه صلى الله عليه وسلم خاصة محل الصدارة من مباحث الباحثين، وتقرير المرشدين، فهي بالنسبة للعموم أساس قوام الأمم وعامل الحفاظ على بقائها، كما قيل: **إنما الأمم الأخلاق ما بقيت فإن هم ذهبت أخلاقهم ذهبوا**) ^(٣).

قال أنس بن مالك رضي الله عنه لبكير بن وهب الجزري: أحدثك حديثاً ما أحدثه كل أحد؟ إن رسول الله صلى الله عليه وسلم قام على باب ونحن فيه. فقال: (الأئمة من قريش، إن لهم عليكم حقاً، ولكم عليهم حقاً، أما إن استرحموا رحموا، وإن عاهدوا وفوا، وإن حكموا عدلوا، فمن لم يفعل ذلك منهم فعليه لعنة الله والملائكة والناس أجمعين) ^(٤).

المطلب الثاني: بالنسبة للفرد:

فآثار الأخلاق عامة على الفرد ما يلي :

أ- شعوره بالأمن والطمأنينة والراحة النفسية حينما يحقق الخلق الحسن مع غيره: قال بعض البلغاء: (الحسنُ الخلق من نفسه في راحة، والناس منه في سلامة. والسيء الخلق الناس منه في بلاء وهو من نفسه في عناء) ^(٥).

ب- أمنه على نفسه وماله وعرضه وممتلكاته العامة.

ج- حصوله على حقوقه كاملة، وإعطائه لمجتمعه ما يجب عليه كاملاً.

د- زيادة إنتاج وعطاء الفرد لمجتمعه.

هـ - شيوع روح المحبة والألفة والترابط بين أفراد المجتمع ^(٦): قال الفضيل بن عياض: (إنَّ الفاسق إذا كان حسن الخلق عاش بعقله، وخفَّ على الناس، وأحبوه. وإنَّ العابد إذا كان سيء الخلق ثقل على الناس، ومقتوه) ^(٧).

(١) رواه الإمام أحمد ١٥٩/٦.

(٢) رسائل فتیان الدعوة ص ٦٦.

(٣) أضواء البيان ٢٤٨/٨.

(٤) رواه النسائي في الكبرى ٤٦٧/٣، برقم (٥٩٤٢) كتاب القضاء، باب الأئمة من قريش. ومسند الإمام أحمد ١٢٩/٣، برقم (١٢٣٢٩).

(٥) أدب الدنيا والدين، ص ٢٤٢.

(٦) رسائل فتیان الدعوة، ص ٦٦.

(٧) روضة العقلاء، (٦٤/١).

المبحث الثاني : آثار الحياء الخاصة :

وأما آثار الحياء الخاصة فهي كثيرة، أذكر منها مايلي:

١. أنه من أسباب الفوز بالجنة والنجاة من النار: وذلك لعموم الأدلة الدالة على أن حسن الخلق من أسباب دخول الجنة والحياء منها: قال أبو حاتم-رحمه الله-: (كما أن من أعظم بركة الحياء من الله الفوز من النار بلزوم الحياء عند مجانبة ما نهى الله عنه...) (١).

٢. أنه من خصال الإيمان، وأصل كل شعبه، وهي دليل على حسن الإسلام: قال المناوي في شرح (الحياء من الإيمان): (أي من أسباب أصل الإيمان وأخلاق أهله؛ لمنعه من الفواحش، وحمله على البر والخير...)، وقال: (الحياء والإيمان مقرونان لا يفترقان إلا جميعاً، أي: كأتهما رضيعا لبان ثدي، أو تقاسما أن لا يفترقا)، وقال: (لأن من استحيا من الناس أن يروه يفعل قبحاً، دعاه ذلك إلى أن يكون حياؤه من ربه أشد فلا يهمل فرضاً ولا يعمل ذنباً. قال بعضهم: الحياء دليل الدين الصحيح، وشاهد الفضل الصريح، وسمة الصلاح الشامل، وعنوان الفلاح الكامل، من كان فيه نظم قلائد المحامد، ونسق وجمع من خلال الكمال ما افترق...) (٢).

٣. أنه من أسباب حياة القلب: قال عمرو بن عثمان: (والحياء يعمر القلوب بدوام الطهارة، ويُخرج من القلوب حلاوة الماء، ثم حلاوة الشهوات. ودوام الحياء يوجب على القلوب إعظام حرمة الله، بإعظام مقام الله حياء من جلال الله؛ لأن إجلال حرمة الله في القلوب غاسل للقلوب بماء الحياة الوارد عليها من فوائد الله فتخلق الدنيا في قلوبهم، وتصغر الأشياء فيها) (٣). فتلك والله حياة القلب بعينها . وقال الفضيل بن عياض-رحمه الله-: (خمس من علامات الشقاوة : القسوة في القلب، وجمود العين، وقلة الحياء، والرغبة في الدنيا، وطول الأمل) (٤) .

قال الإمام الترمذي-رحمه الله-: (فصار الحياء من شأنهم-يعني الأنبياء- لظهور الروح من أسباب النفس) (٥).

وقال المناوي: (ولأن من استحيا كان خاشع القلب لله تعالى، متواضعاً قد برئ الكبر ونحوه، وقالوا: لا يزال الوجه كريماً ما دام حياؤه، ولم يرق باللجاج ماؤه. وقالوا: حياة الوجه بحيائه، كما أن حياة الغرس بمائه...) (٦).

(١) روضة العقلاء ، (٥٨/١) .

(٢) التيسير بشرح الجامع الصغير (٥١٠/١) .

(٣) حلية الأولياء ٢٩٥/١٠ ،

(٤) مدارج السالكين ٢٦٠/٢ .

(٥) نوارد الأصول في أحاديث الرسول ٢٥٤/٢ .

(٦) التيسير بشرح الجامع الصغير ٥١٠/١ .

٤. أنه مما يعين على التخلص من سلطان الشيطان وكيدته: قال الغزالي-رحمه الله: (فكل ذلك لتصاعد دخان الهوى إلى القلب حتى يُظلم وتنطفئ منه أنواره، فينطفئ نور الحياء والمروءة والإيمان، ويسعى في تحصيل مراد الشيطان)^(١).

٥. أنه سبب كل خير، وعمدة كل فضيلة: فقد قال علي رضي الله عنه: (والحياء سبب إلى كل جميل)^(٢). وقال الإمام أبو حاتم-رحمه الله-: (إن المرء إذا اشتد حياؤه صان عرضه، ودفن مساويه، ونشر محاسنه. ومن ذهب حياؤه ذهب سروره، ومن ذهب سروره هان على الناس ومقت، ومن مقت أودى، ومن أودى حزن، ومن حزن فقد عقله، ومن أصيب في عقله كان أكثر قوله عليه لا له. ولا دواء لمن لا حياء له)، وقال: (وإن من أعظم بركته تعويد النفس ركوب الخصال الحمودة ومجانبتها الخلال المذمومة)^(٣). قال المناوي: (إذا رأيت من أخيك في الدين ثلاث خصال فأمل أن ينتفع برأيه، ومشورته، وارج له الفلاح، والفوز بالنجاح؛ لما لاح فيه من مخايل الخير، وأمارات الرشد التي من ثمرات هذه الخصال، وهي: الحياء، والأمانة، والصدق. فإنها أمهات مكارم الأخلاق، فإذا وجدت في عبد دل على صلاحه فیرتجى ويرجى له الفلاح).

وقدم الحياء في الذكر؛ لأنه أصل ما بعده، ورأسه، وعنه يتفرع، ومنه ينشأ. وإذا لم ترها مجتمعة فيه فلا ترجه لشيء مما ذكر، ولا تؤمل فلاحه؛ لأنها إذا لم تجتمع في إنسان دل على قلة مبالاته بالعاقبة، وجرأته على الله وعلى عباده)^(٤).

وقال: (ما كان الفحش في شيء قط إلا شأنه وعابه. والشين العيب، ولا كان الحياء في شيء قط إلا زانه قال الطيبي: فيه مبالغة. أي: لو قُدِّرَ أن يكون الفحش أو الحياء في جماد لشانه أو زانه، فكيف بالإنسان؟ وأشار بهذين إلى أن الأخلاق الرذلة مفتاح كل شر، بل هي الشر كله. والأخلاق الحسنة السنية مفتاح كل خير، بل هي الخير كله)^(٥).

لطيفة: قال ابن جماعة: (وقد بلي بعض أصحاب النفوس الخبيثة من فقهاء الزمان بالفحش والحسد والعجب والرياء وعدم الحياء) أ.هـ، وأقول ليت ابن جماعة عاش إلى الآن حتى رأى علماء هذا الزمان... فيض القدير ٥/٤٦١. وأقول: ليت المناوي عاش إلى الآن حتى يرى علماء هذا الزمان. والله المستعان.

قال بعضهم: (الحياء دليل الدين الصحيح، وشاهد الفضل الصريح، وسمة الصلاح الشامل، وعنوان الفلاح الكامل، من كان فيه نظم قلائد المحامد، ونسق وجمع من خلال الكمال ما افترق)^(٦).

(١) إحياء علوم الدين ٣/٤٧

(٢) إحياء علوم الدين ٤/٤٠٢.

(٣) روضة العقلاء ١/٥٨

(٤) فيض القدير ١/٣٥٥. بتصرف.

(٥) فيض القدير ٥/٤٦١.

(٦) التيسير بشرح الجامع الصغير ١/٥١٠.

٦. أنه سببٌ لهجر المعاصي: ويكون ذلك خجلاً من الله سبحانه وتعالى. (لأن الترك من ثمرات الحياء؛ لأن الإنسان إذا استحيا من فعل شيء تركه، فيكون من باب تسمية المسبب باسم السبب)^(١). وقال الإمام أبو حاتم-رحمه الله-: (فإذا لزم المرء الحياء كانت أسباب الخير منه موجودة، كما أن الواقع إذا لزم البذاء كان وجود الخير منه معدوماً، وتواتر الشر منه موجوداً؛ لأن الحياء هو الحائل بين المرء وبين المزجورات كلها، فبقوة الحياء يضعف ارتكابه إياها، وبضعف الحياء تقوى مباشرته إياها...)^(٢).

قال الغزالي-رحمه الله-: (لأن مستنده استشعار تقصير، وتوهم ذنب، ويتصور التعظيم والخوف

والرجاء من غير حياء حيث لا يكون توهم تقصير، وارتكاب ذنب)^(٣).

وقال ابن القيم-رحمه الله-: (قاعدة: الصبر عن المعصية ينشأ من أسباب عديدة)، وذكر منها: (السبب الثاني: الحياء من الله سبحانه: فإن العبد متى علم بنظره إليه، ومقامه عليه، وأنه يبرأى منه، ومسمع، وكان حياء، استحيى من ربه أن يتعرض لمساخطه)^(٤).

وقال المناوي: (ولذلك لا يكون المستحي فاسقاً، ولا الفاسق مستحياً؛ لتنافي اجتماع العفة والفسق)^(٥).

وقال الدهلوي: (ولذلك ترى سقوط الشهوة والشيق عند خطور ما يورث في النفس كيفية الحياء)^(٦).

وقال عمرو بن عثمان: (والحياء يعمر القلوب بدوام الطهارة، ويُخْرِجُ من القلوب حلاوة الماء، ثم حلاوة الشهوات. ودوام الحياء يوجب على القلوب إعظام حرمة الله، بإعظام مقام الله حياء من إجلال الله)^(٧).

٧. أنه من دواعي الإقبال على الطاعة والعبادة وإتقانها بوازع الحب لله تعالى: قال المناوي: (ومن عرف إحاطة علمه لكل معلوم، ورؤيته لكل مصر، أثمر ذلك العلم الحياء منه، والمراقبة، وإتقان العبادة، وإصلاح القلب، وإخلاص العمل)^(٨).

وقال الغزالي-رحمه الله-: (وأما-اليقين- بالمعنى الثاني... وهذا المقام في اليقين يورث الحياء، والخوف، والانكسار، والذل، والاستكانة، والخضوع، وحيلة من الأخلاق الحمودة، وهذه الأخلاق تورث أنواعاً من الطاعات رفيعة)^(٩).

قال الغزالي-رحمه الله- في بيان المعاني الباطنة التي تتم بها حياة الصلاة: (اعلم أن هذه المعاني تكثرُ العبارات عنها ولكن يجمعها ستُّ حملٍ، وهي: حضور القلب، والتفهم، والتعظيم، والهيبة، والرجاء، والحياء)^(١٠). فجعل الحياء من الله من المعاني المتممة للصلاة.

(١) تفسير البحر المحيط ، ٢٦٥/١ .

(٢) روضة العقلاء ٥٨/١ .

(٣) إحياء علوم الدين ، ١٦٢/١ .

(٤) طريق المجرتين ٤٠٨/١ .

(٥) فيض القدير ٤٢٦/٣ .

(٦) حجة الله البالغة ١١٤/١ .

(٧) حلية الأولياء ٢٩٥/١٠ .

(٨) فيض القدير ٢٤٣/٦ .

(٩) إحياء علوم الدين ٧٥/١ .

(١٠) إحياء علوم الدين ١٦١/١ .

٨. أنه من أسباب مغفرة الذنوب: قال الله عز وجل: (ابن آدم: إنك ما استحييت مني أنسيته الناس عيوبك، وأنسيته بقاع الأرض ذنوبك، ومحوته من أم الكتاب زلاتك، وإلا ناقشتك الحساب يوم القيامة) ^(١).

٩. أنه يكسو صاحبه الوقار: فلا يفعل ما يخل بالمرورة والتوقير، ولا يؤذي من يستحق الإكرام، وذلك سبب البعد عن فضائح الدنيا والآخرة، فيصده عن فعل القبائح، ويحظره عن مماشاة أهل الفضائح وبالتالي يكون من الأخيار، قال الإمام أبو حاتم-رحمه الله-: (ولا حياء لمن لا وفاء له ولا وفاء لمن لا إحاء له ومن قل حياؤه صنع ما شاء وقال ما أحب) ^(٢).

وإذا تم له ذلك صار محبوباً إلى الناس، وقريباً منهم، وقدوة لهم، ومرضياً منهم، وذكر بالخير والثناء الحسن، وهو قبل ذلك كله دليل على عقل صاحبه وعلوه حتى قيل: (لا ترضَ قول امرئ حتى ترضى فعله ولا فعله حتى ترضى عقله ولا عقله حتى ترضى حياه) ^(٣).

١٠. أنه دليل كرم السجية وطيب المنبت: قال أبو حاتم-رحمه الله-: (كما أن من أعظم بركة الحياء من الله الفوز من النار بلزوم الحياء عند مجانبته ما نهى الله عنه لأن ابن آدم مطبوع على الكرم واللؤم معا في المعاملة بينه وبين الله والعشرة بينه وبين المخلوقين وإذا قوى حياؤه قوى كرمه وضعف لؤمه وإذا ضعف حياؤه قوى لؤمه وضعف كرمه) ^(٤).

وقيل: (لا يزال الوجه كريماً ما دام حياؤه ، ولم يرق باللجاج ماؤه . وقالوا : حياة الوجه بحيائه كما أن حياة الغرس بمائه...) ^(٥).

١١. أن فيه اقتضاء بالأنبياء: فهي صفة من صفات الأنبياء وسلف الأمة من الصحابة والتابعين. أما من صفات الأنبياء فقد جاء عن مريح بن عبد الله الخطمي عن أبيه عن جده رضوان الله عليهم قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (خمس من سنن المرسلين: الحياء والحلم والحجامة والسواك والتعطر) ^(٦). وفي رواية أبي أيوب: (أربع من سنن المرسلين: التعطر والحياء والنكاح والسواك) ^(٧).

ومعناه أن هذه الخمسة من شأنهم، ومنها الحياء فإن النور إذا دخل القلب تخلصت الروح من أسر النفس فصار إلى طبعه السماوي ، فالحياء خجالة الروح ، و تلكيه عن كل عمل لا يحسن في أهل السماء، فصار الحياء من شأنهم لطهارة الروح من أسباب النفس ^(٨).

(١) مدارج السالكين ٢/ ٢٦٠. ولم أجده في شيء من كتب السنة .

(٢) روضة العقلاء ١/ ٥٩.

(٣) التيسير بشرح الجامع الصغير ١/ ٥١٠.

(٤) روضة العقلاء ١/ ٥٨.

(٥) التيسير بشرح الجامع الصغير ١/ ٥١٠.

(٦) رواه الطبراني في الكبير ٢٢ / ٢٩٣ ، برقم (٧٤٩) .

(٧) رواه الترمذي ٣ / ٣٩١ ، برقم (١٠٨٠) ، كتاب النكاح ، باب ما جاء في فضل التزويج والحث عليه ، والطبراني في الكبير ٤ / ١٨٣ ، برقم (٤٠٨٥) .

(٨) نوادر الأصول في أحاديث الرسول ٢ / ٢٥٤. بتصرف .

١٢ . أنه سبب لمحبة الله عز وجل: فصاحبها يُعد من المحبوبين من الله، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : (إن الله عز وجل حيي ستير ، يحب الحياء والستر)^(١) . وقال ابن القيم -رحمه الله- عن الله: (حيي يحب أهل الحياء)^(٢) . ولأنها من جملة الطاعات والعبادات ، وقد دلت الآيات على محبة الله لأهلها .

١٣ . أنه من أسباب إجابة الدعاء من الله عز وجل: يقول الله: (ما أنصفني عبدي.. يدعوني فأستحي أن أردّه ويعصيني ولا يستحي مني)^(٣) .

قال ابن القيم-رحمه الله-: (وأما حياء الرب تعالى من عبده فذاك نوع آخر لا تدركه الأفهام ولا تكيفه العقول فإنه حياء كرم وبر وجود وجلال فإنه تبارك وتعالى حيي كريم يستحي من عبده إذا رفع إليه يديه أن يردهما صفراً)^(٤) .

وأخيراً: (فلأن الإسلام هو تسليم النفس لله والدين خضوعها وانقيادها؛ فلذلك صار الحياء خلقاً للإسلام ووعاء للدين، يستحي فيتواضع، ويستحي فيخضع، ويستحي فيبذل نفسه لله، ولا ييخل بها عليه. ومن الحياء انكسار النفس، وذهاب رجوليتها، ألا ترى أن المرأة لما فضلت على الرجل بتسعة وتسعين جزءاً من الحياء كيف كسرت شهواتها التي فضلت بها على الرجل؟.

وروي عن رسول الله صلى الله عليه وسلم: (إن المرأة فضلت على الرجل بتسعة وتسعين جزءاً من الشهوة وفضلت من الحياء بتسعة وتسعين جزءاً لتكسر تلك الشهوات ما فضلت به من أجزاء الحياء)^(٥) . فقد بان لك أن الحياء يكسر ويذهب بالقوة والجلادة والصلابة من النفس وإذا كان ذلك يقوي القلب؛ لأن الحياء من الحياة بالله والحياة بالله من نفس المعرفة)^(٦) .

فإن من فقد الحياء تدرج في حياته من السيء إلى الأسوء، وهبط من الرذيلة إلى الأردل، ولا يزال يهوي حتى ينحدر إلى الدركات السفلى والعياذ بالله...

(١) رواه أبو داود ، ٣٩/٤ ، برقم (٤٠١٢) ، كتاب الحمام ، باب النهي عن التعري ، والبيهقي في الكبرى ، ١٩٨/١ ، برقم (٩٠٨) ، كتاب الطهارة ، باب الستر في الغسل عند الناس .

(٢) شفاء العليل ١٠٥/١ ، روضة الحبيب ٦٤/١ .

(٣) مدارج السالكين ٢/٢٦٠ .

(٤) مدارج السالكين ٢/٢٦١ .

(٥) ولم أجد له أصلاً في كتب السنة .

(٦) نوافر الأصول في أحاديث الرسول ٤٦/٤-٤٧ .

ثبُتُ المصادر والمراجع

١. القرآن الكريم.
٢. الحماسة المغربية (مختصر كتاب صفوة الأدب ونخبة ديوان العرب)، تأليف: أبو العباس أحمد بن عبد السلام الجراوي التادلي، دار النشر: دار الفكر المعاصر - بيروت ، ١٩٩١م، الطبعة الأولى، تحقيق: محمد رضوان الداية.
٣. الإبهاج في شرح المنهاج على منهاج الوصول إلى علم الأصول للبيضاوي، تأليف: علي بن عبد الكافي السبكي، دار النشر: دار الكتب العلمية - بيروت ، ١٤٠٤هـ، الطبعة الأولى، تحقيق: جماعة من العلماء.
٤. إحياء علوم الدين، تأليف: محمد بن محمد الغزالي أبو حامد، دار النشر: دار المعرفة - بيروت. السنن الكبرى، تأليف: أحمد بن شعيب أبو عبد الرحمن النسائي، دار النشر: دار الكتب العلمية - بيروت ، ١٤١١هـ - ١٩٩١م، الطبعة الأولى، تحقيق: د. عبد الغفار سليمان البنداري، سيد كسروي حسن.
٥. الأخلاق الإسلامية وأسسها، تأليف: عبد الرحمن بن حنكة الميداني، دار النشر: دار القلم - دمشق ، ١٤٢٣هـ - ٢٠٠٢م ، الطبعة السادسة.
٦. الأخلاق والسير في مداواة النفوس، تأليف: أبو محمد علي بن أحمد بن حزم الظاهري، دار النشر: دار الآفاق الجديدة - بيروت ، ١٣٩٩هـ - ١٩٧٩م، الطبعة الثانية، بلا تحقيق.
٧. الآداب الشرعية والمنح المرعية، تأليف: الإمام أبي عبد الله محمد بن مفلح المقدسي، دار النشر: مؤسسة الرسالة - بيروت ، ١٤١٧هـ - ١٩٩٦م، الطبعة الثانية، تحقيق: شعيب الأرنؤوط و عمر القيام.
٨. آداب الصحبة، تأليف: أبي عبد الرحمن السلمي، دار النشر: دار الصحابة للتراث - طنطا - مصر، ١٤١٠هـ - ١٩٩٠م، الطبعة الأولى، تحقيق: مجدي فتحي السيد.
٩. الآداب والأحكام المتعلقة بدخول الحمام، تأليف: أبو الفداء الحافظ عماد الدين إسماعيل بن كثير الدمشقي، دار النشر: دار الوطن للنشر - الرياض ، ١٤١٨هـ - ١٩٩٧م، الطبعة الأولى، تحقيق: سامي بن محمد بن جاد الله.
١٠. أدب الدنيا والدين، تأليف: علي بن محمد بن حبيب الماوردي، دار النشر: دار مكتبة الحياة.
١١. الأدب المفرد، تأليف: محمد بن إسماعيل أبو عبد الله البخاري الجعفي، دار النشر: دار البشائر الإسلامية - بيروت ، ١٤٠٩هـ - ١٩٨٩م، الطبعة الثالثة، تحقيق: محمد فؤاد عبد الباقي.
١٢. آفاق الجمال، تأليف: محمد أحمد الراشد، دار النشر: دار المحراب للنشر والتوزيع - كندا - سويسرا ، ١٤٢٢هـ - ٢٠٠٢م، الطبعة الأولى.

١٣. أمراض القلوب وشفافها، تأليف: أحمد بن تيمية، دار النشر: المطبعة السلفية - القاهرة ، ١٣٩٩هـ، الطبعة الثانية.
١٤. الأنساب، تأليف: أبي سعيد عبد الكريم بن محمد ابن منصور التميمي السمعاني، دار النشر: دار الفكر - بيروت ، ١٩٩٨م، الطبعة الأولى، تحقيق: عبد الله عمر البارودي.
١٥. أنوار البروق في أنواع الفروق، تأليف: أحمد بن إدريس (القراقي)، دار النشر: دار عالم الكتب.
١٦. بريقة محمودية، تأليف: محمد بن محمد بن محمود الخادمي، دار النشر: دار إحياء الكتب العربية.
١٧. بصائر في العلم والثقافة (مستخلصة من كتب أ.د. عبد الكريم بكار)، تأليف: الفريق العلمي بدار الإعلام، دار النشر: دار الإعلام - الأردن - عمان ، ١٤٢٤هـ - ٢٠٠٣م، الطبعة الأولى.
١٨. بناء الأخلاق، تأليف: عبد الله سليم القرشي، دار النشر: دار القاسم - الرياض ، ١٤٢٥هـ - ٢٠٠٤م ، الطبعة الأولى.
١٩. تاج العروس من جواهر القاموس، تأليف: محمد مرتضى الحسيني الزبيدي، دار النشر: دار الهداية، تحقيق: مجموعة من المحققين.
٢٠. تاريخ الإسلام ووفيات المشاهير والأعلام، تأليف: شمس الدين محمد بن أحمد بن عثمان الذهبي، دار النشر: دار الكتاب العربي - لبنان - بيروت ، ١٤٠٧هـ - ١٩٨٧م، الطبعة الأولى، تحقيق: د. عمر عبد السلام تدمري.
٢١. تاريخ بغداد، تأليف: أحمد بن علي أبو بكر الخطيب البغدادي، دار النشر: دار الكتب العلمية - بيروت - لبنان.
٢٢. تاريخ مدينة دمشق وذكر فضلها وتسمية من حلها من الأماثل، تأليف: أبي القاسم علي بن الحسن بن هبة الله بن عبد الله الشافعي ، دار النشر: دار الفكر - بيروت ، ١٩٩٥م، تحقيق: محب الدين أبي سعيد عمر بن غرامة العمري.
٢٣. الترغيب والترهيب من الحديث الشريف، تأليف: عبد العظيم بن عبد القوي المنذري أبو محمد، دار النشر: دار الكتب العلمية - بيروت ، ١٤١٧هـ، الطبعة الأولى، تحقيق: إبراهيم شمس الدين.
٢٤. تفسير البحر المحيط، تأليف: محمد بن يوسف الشهير بأبي حيان الأندلسي، دار النشر: دار الكتب العلمية - لبنان - بيروت ، ١٤٢٢هـ - ٢٠٠١م، الطبعة الأولى، تحقيق: الشيخ عادل أحمد عبد الموجود و الشيخ علي محمد معوض.
٢٥. تفسير القرآن العظيم المعروف بـ (تفسير ابن كثير)، تأليف: إسماعيل بن عمر بن كثير الدمشقي أبو الفداء، دار النشر: دار الفكر - بيروت ، ١٤٠١هـ.
٢٦. التفسير الكبير المعروف بـ (مفاتيح الغيب)، تأليف: فخر الدين محمد بن عمر التميمي الرازي الشافعي، دار النشر: دار الكتب العلمية - بيروت ، ١٤٢١هـ - ٢٠٠٠م، الطبعة الأولى.
٢٧. تهذيب اللغة ، تأليف: أبو منصور محمد بن أحمد الأزهرى ، دار النشر: دار إحياء التراث العربي - بيروت - ٢٠٠١م، الطبعة الأولى ، تحقيق: محمد عوض مرعب.

٢٨. تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان، تأليف: عبد الرحمن بن ناصر السعدي، دار النشر: مؤسسة الرسالة - بيروت ، ١٤٢١هـ - ٢٠٠٠م، تحقيق: عبدالرحمن بن معلا اللويحق.
٢٩. التيسير بشرح الجامع الصغير، تأليف: الإمام الحافظ زين الدين عبد الرؤوف المناوي، دار النشر: مكتبة الإمام الشافعي - الرياض ، ١٤٠٨هـ - ١٩٨٨م، الطبعة الثالثة.
٣٠. الجامع الصحيح المختصر، تأليف: الإمام محمد بن إسماعيل أبو عبد الله البخاري الجعفي، دار النشر: دار ابن كثير ، اليمامة- بيروت ، ١٤٠٧هـ - ١٩٨٧م، الطبعة الثالثة، تحقيق: د. مصطفى ديب البغا.
٣١. الجامع الصحيح سنن الترمذي، تأليف: محمد بن عيسى أبو عيسى الترمذي السلمي، دار النشر: دار إحياء التراث العربي - بيروت-، تحقيق: أحمد محمد شاكر وآخرون.
٣٢. جامع العلوم والحكم في شرح خمسين حديثاً من جوامع الكلم، تأليف: زين الدين أبي الفرج عبد الرحمن بن شهاب الدين البغدادي، دار النشر: مؤسسة الرسالة - بيروت ، ١٤١٧هـ - ١٩٩٧م، الطبعة السابعة، تحقيق: شعيب الأرنؤوط و إبراهيم باجس.
٣٣. جامع بيان العلم وفضله، تأليف: يوسف بن عبد البر النمري، دار النشر: دار الكتب العلمية - بيروت ، ١٣٩٨هـ، الطبعة الأولى.
٣٤. حجة الله البالغة، تأليف: الإمام أحمد المعروف بشاه ولي الله ابن عبد الرحيم الدهلوي، دار النشر: دار الكتب الحديثة - مكتبة المثنى - القاهرة - بغداد، تحقيق: سيد سابق.
٣٥. حكم وآداب من مآثر العرب، تأليف: عبد العزيز بن محمد الأحيدب، دار النشر: دار الإشعاع ، ١٤٠٣هـ ، الطبعة الثانية.
٣٦. حلية الأولياء وطبقات الأصفياء، تأليف: أبو نعيم أحمد بن عبد الله الأصبهاني، دار النشر: دار الكتاب العربي - بيروت ، ١٤٠٥هـ، الطبعة الرابعة.
- نوادير الأصول في أحاديث الرسول صلى الله عليه وسلم، تأليف: محمد بن علي بن الحسن أبو عبد الله الحكيم الترمذي، دار النشر: دار الجليل - بيروت ، ١٩٩٢م، تحقيق: عبد الرحمن عميرة.
٣٧. الحياء (مادة مسموعة)، الملقى: الدكتور حسين بن سيد العفاني.
٣٨. رسائل فتیان الدعوة، تأليف: اللجنة الثقافية في مؤسسة الكلمة بإشراف الشيخ جاسم الياسين والشيخ أحمد القطان، دار النشر: مؤسسة الكلمة للنشر والتوزيع-الكويت، ١٤١٤هـ-١٩٩٤م.
- الحياء وأثره في حياة المسلم، تأليف: عبد الله بن جار الله الجار الله، دار النشر: دار الصميعي للنشر و التوزيع-الرياض، ١٤١١هـ، الطبعة الأولى.
٣٩. روضة العقلاء ونزهة الفضلاء، تأليف: محمد بن حبان البستي أبو حاتم، دار النشر: دار الكتب العلمية - بيروت ، ١٣٩٧هـ - ١٩٧٧م، تحقيق: محمد محي الدين عبد الحميد.
٤٠. روضة الحبين ونزهة المشتاقين، تأليف: محمد بن أبي بكر أيوب أبو عبد الله الزرعي (ابن قيم الجوزية)، دار النشر: دار الكتب العلمية - بيروت ، ١٤١٢هـ - ١٩٩٢م.

٤١. رياض الصالحين من كلام سيد المرسلين، تأليف: أبو زكريا يحيى بن شرف النووي، دار النشر: دار الفكر - بيروت ، ١٤٢١هـ - ٢٠٠٠م، الطبعة الثالثة.
٤٢. الزهد، تأليف: هناد بن السري الكوفي، دار النشر: دار الخلفاء للكتاب الإسلامي - الكويت ، ١٤٠٦هـ، الطبعة الأولى، تحقيق: عبد الرحمن عبد الجبار الفريوائي.
٤٣. سبل السلام شرح بلوغ المرام من أدلة الأحكام، تأليف: محمد بن إسماعيل الصنعاني الأمير، دار النشر: دار إحياء التراث العربي - بيروت ، ١٣٧٩هـ، الطبعة الرابعة، تحقيق: محمد عبد العزيز الخولي.
٤٤. سوء الخلق (مظاهره-أسبابه-علاجه)، تأليف: محمد بن إبراهيم الحمد، دار النشر: دار ابن خزيمة للنشر والتوزيع - الرياض، ١٤١٧هـ - ١٩٩٦م، الطبعة الثانية.
٤٥. سير أعلام النبلاء، تأليف: محمد بن أحمد بن عثمان بن قايماز الذهبي أبو عبد الله، دار النشر: مؤسسة الرسالة - بيروت ، ١٤١٣هـ، الطبعة التاسعة، تحقيق: شعيب الأرنؤوط و محمد نعيم العرقسوسي.
٤٦. شرح العمدة في الفقه، تأليف: أحمد بن عبد الحليم بن تيمية الحراني أبو العباس، دار النشر: مكتبة العبيكان - الرياض ، ١٤١٣هـ، الطبعة الأولى، تحقيق: د. سعود صالح العطيشان.
٤٧. شعب الإيمان، تأليف: أبو بكر أحمد بن الحسين البيهقي، دار النشر: دار الكتب العلمية - بيروت ، ١٤١٠هـ، الطبعة الأولى، تحقيق: محمد السعيد و بسيوني زغلول.
٤٨. شفاء العليل في مسائل القضاء والقدر والحكمة والتعليل، تأليف: أبو عبد الله شمس الدين محمد بن أبي بكر بن أيوب بن سعد الزرعي الدمشقي، دار النشر: دار الفكر - بيروت ، ١٣٩٨هـ، تحقيق: محمد بدر الدين أبو فراس النعساني الحلبي.
٤٩. صحيح ابن حبان بترتيب ابن بلبان، تأليف: محمد بن حبان بن أحمد أبو حاتم التميمي البستي، دار النشر: مؤسسة الرسالة - بيروت ، ١٤١٤هـ - ١٩٩٣م، الطبعة الثانية، تحقيق: شعيب الأرنؤوط.
٥٠. صحيح مسلم بشرح النووي، تأليف: أبو زكريا يحيى بن شرف بن مري النووي، دار النشر: دار إحياء التراث العربي - بيروت ، ١٣٩٢هـ، الطبعة الثانية.
٥١. صحيح مسلم، تأليف: مسلم بن الحجاج أبو الحسين القشيري النيسابوري، دار النشر: دار إحياء التراث العربي - بيروت، تحقيق: محمد فؤاد عبد الباقي.
٥٢. صفة الصفوة، تأليف: عبد الرحمن بن علي بن محمد أبو الفرج، دار النشر: دار المعرفة - بيروت ، ١٣٩٩هـ - ١٩٧٩م، الطبعة الثانية، تحقيق: محمود فاخوري و د.محمد رواس قلعه جي.
٥٣. طريق المهجرتين وباب السعادتين، تأليف: محمد بن أبي بكر أيوب الزرعي أبو عبد الله، دار النشر: دار ابن القيم - الدمام ، ١٤١٤هـ - ١٩٩٤م، الطبعة الثانية، تحقيق: عمر بن محمود أبو عمر.

٥٤. فضائح الباطنية، تأليف: محمد بن محمد بن محمد الغزالي أبو حامد، دار النشر: مؤسسة دار الكتب الثقافية - الكويت، تحقيق: عبد الرحمن بدوي.
٥٥. الفوائد، تأليف: أبو عبد الله شمس الدين محمد بن أبي بكر بن أيوب بن سعد الزرعي الدمشقي، دار النشر: دار الكتب العلمية - بيروت، ١٣٩٣هـ - ١٩٧٣م، الطبعة الثانية.
٥٦. فيض القدير شرح الجامع الصغير، تأليف: عبد الرؤوف المناوي، دار النشر: المكتبة التجارية الكبرى - مصر، ١٣٥٦هـ، الطبعة الأولى.
٥٧. الكتاب المصنف في الأحاديث والآثار، تأليف: أبو بكر عبد الله بن محمد بن أبي شيبة الكوفي، دار النشر: مكتبة الرشد - الرياض، ١٤٠٩هـ، الطبعة الأولى، تحقيق: كمال يوسف الحوت.
٥٨. كتب ورسائل وفتاوى شيخ الإسلام ابن تيمية، تأليف: أحمد عبد الحلیم بن تيمية الحراني أبو العباس، دار النشر: مكتبة ابن تيمية، الطبعة الثانية، تحقيق: عبد الرحمن بن محمد بن قاسم العاصمي النجدي.
٥٩. كشف الخفاء ومزيل الإلباس عما اشتهر من الأحاديث على ألسنة الناس، تأليف: إسماعيل بن محمد العجلوني الجراحي، دار النشر: مؤسسة الرسالة - بيروت، ١٤٠٥هـ، الطبعة: الرابعة، تحقيق: أحمد القلاش.
٦٠. كشف الظنون عن أسامي الكتب والفنون، تأليف: مصطفى بن عبد الله القسطنطيني الرومي الحنفي، دار النشر: دار الكتب العلمية - بيروت، ١٤١٣هـ - ١٩٩٢م.
٦١. كلمة الإخلاص وتحقيق معناها، تأليف: ابن رجب الحنبلي، دار النشر: المكتب الإسلامي - بيروت، ١٣٩٧، الطبعة الرابعة، تحقيق: زهير الشاويش.
٦٢. كثر العمال في سنن الأقوال والأفعال، تأليف: علاء الدين علي المتقي بن حسام الدين الهندي، دار النشر: دار الكتب العلمية - بيروت، ١٤١٩هـ - ١٩٩٨م، الطبعة: الأولى، تحقيق: محمود عمر الدمياطي.
٦٣. لسان العرب، تأليف: محمد بن مكرم بن منظور الأفريقي المصري، دار النشر: دار صادر - بيروت، الطبعة الأولى.
٦٤. مجمع الزوائد ومنبع الفوائد، تأليف: علي بن أبي بكر الهيثمي، دار النشر: دار الريان للتراث/دار الكتاب العربي - القاهرة، بيروت، ١٤٠٧هـ.
٦٥. مختار الصحاح، تأليف: محمد بن أبي بكر بن عبد القادر الرازي، دار النشر: مكتبة لبنان ناشرون - بيروت، ١٤١٥هـ - ١٩٩٥م، الطبعة: طبعة جديدة، تحقيق: محمود خاطر.
٦٦. مختصر شعب الإيمان للبيهقي، تأليف: عمر بن عبد الرحمن القزويني أبو المعالي، دار النشر: دار ابن كثير - دمشق، ١٤٠٥هـ، الطبعة الثانية، تحقيق: عبد القادر الأرناؤوط.
٦٧. مدارج السالكين بين منازل إياك نعبد وإياك نستعين، تأليف: محمد بن أبي بكر أيوب الزرعي أبو عبد الله، دار النشر: دار الكتاب العربي - بيروت، ١٣٩٣هـ - ١٩٧٣م، الطبعة الثانية، تحقيق: محمد حامد الفقي.
٦٨. مرقاة المفاتيح شرح مشكاة المصابيح، تأليف: الملا علي بن سلطان محمد القاري، دار النشر: دار الكتب العلمية - لبنان - بيروت، ١٤٢٢هـ - ٢٠٠١م، الطبعة: الأولى، تحقيق: جمال عيتاني.

٦٩. مسند الإمام أحمد بن حنبل، تأليف: أحمد بن حنبل أبو عبد الله الشيباني، دار النشر: مؤسسة قرطبة - مصر.
٧٠. مشارق الأنوار على صحاح الآثار، تأليف: القاضي أبي الفضل عياض بن موسى بن عياض اليحصبي السبتي المالكي، دار النشر: المكتبة العتيقة ودار التراث.
٧١. مشكاة المصابيح، تأليف: محمد بن عبد الله الخطيب التبريزي، دار النشر: المكتب الإسلامي - بيروت، ١٩٨٥م، الطبعة الثالثة، تحقيق: محمد ناصر الدين الألباني.
٧٢. المصباح المنير في غريب الشرح الكبير للرافعي، تأليف: أحمد بن محمد بن علي المقرئ الفيومي، دار النشر: المكتبة العلمية - بيروت.
٧٣. معجم الأدباء، أو إرشاد الأريب إلى معرفة الأديب، تأليف: أبو عبد الله ياقوت بن عبد الله الرومي الحموي، دار النشر: دار الكتب العلمية - بيروت، ١٤١١ هـ - ١٩٩١م، الطبعة الأولى.
٧٤. المعجم الأوسط، تأليف: أبو القاسم سليمان بن أحمد الطبراني، دار النشر: دار الحرمين - القاهرة - ١٤١٥ هـ، تحقيق: طارق بن عوض الله بن محمد وعبد المحسن بن إبراهيم الحسيني.
٧٥. المعجم الوسيط بجزأيه، تأليف: إبراهيم مصطفى و أحمد الزيات و حامد عبد القادر و محمد النجار، دار النشر: دار الدعوة، تحقيق: مجمع اللغة العربية.
٧٦. المغني عن حمل الأسفار، تأليف: أبو الفضل العراقي، دار النشر: مكتبة طبرية - الرياض، ١٤١٥ هـ - ١٩٩٥م، الطبعة الأولى، تحقيق: أشرف عبد المقصود.
٧٧. المفردات في غريب القرآن، تأليف: أبو القاسم الحسين بن محمد، دار النشر: دار المعرفة - لبنان، تحقيق: محمد سيد كيلاني.
٧٨. مقاصد الرعاية لحقوق الله عز وجل أو مختصر رعاية المحاسبي، تأليف: سلطان العلماء عز الدين عبد العزيز بن عبد السلام السلمي، دار النشر: دار الفكر - دمشق، ١٤١٦ هـ - ١٩٩٥م، الطبعة الأولى، تحقيق: إياد خالد الطباع.
٧٩. مكارم الأخلاق، تأليف: أبو بكر عبد الله بن محمد بن عبيد ابن أبي الدنيا القرشي البغدادي، دار النشر: مكتبة القرآن - القاهرة، ١٤١١ هـ - ١٩٩٠م، تحقيق: مجدي السيد إبراهيم.
٨٠. منازل السائرين، تأليف: عبد الله الأنصاري الهروي، دار النشر: دار الكتب العلمية - بيروت، ١٤٠٨ هـ - ١٩٨٨م.
٨١. المنتظم في تاريخ الملوك والأمم، تأليف: عبد الرحمن بن علي بن محمد بن الجوزي أبو الفرج، دار النشر: دار صادر - بيروت، ١٣٥٨ هـ، الطبعة الأولى.
٨٢. المنتقى من كتاب مكارم الأخلاق ومعاليها ومحمود طرائقها، تأليف: أبي بكر محمد بن جعفر بن سهل الخرائطي، دار النشر: دار الفكر - دمشق - سوريا، ١٩٨٦م، تحقيق: أبو طاهر أحمد بن محمد السلفي الأصبهاني.

٨٣. الموسوعة الفقهية، تأليف: وزارة الأوقاف والشئون الإسلامية بالكويت، دار النشر: وزارة الأوقاف الكويتية.
٨٤. موطأ الإمام مالك، تأليف: مالك بن أنس أبو عبد الله الأصمعي، دار النشر: دار إحياء التراث العربي - مصر ، تحقيق: محمد فؤاد عبد الباقي.
٨٥. النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة، تأليف: جمال الدين أبي المحاسن يوسف بن تغري بردي الأتابكي ، دار النشر: وزارة الثقافة والإرشاد القومي - القاهرة - مصر.
٨٦. النهاية في غريب الحديث والأثر، تأليف: أبو السعادات المبارك بن محمد الجزري، دار النشر: المكتبة العلمية - بيروت ، ١٣٩٩هـ - ١٩٧٩م، تحقيق: طاهر أحمد الزاوي و محمود محمد الطناحي.
٨٧. هدي الساري مقدمة فتح الباري شرح صحيح البخاري، تأليف: أحمد بن علي بن حجر أبو الفضل العسقلاني الشافعي، دار النشر: دار المعرفة - بيروت ، ١٣٧٩هـ - ، تحقيق: محمد فؤاد عبد الباقي و محب الدين الخطيب.
٨٨. هذه أخلاقنا حين نكون مؤمنين حقاً، تأليف: محمود محمد الخزندار، دار النشر: دار طيبة للنشر والتوزيع - الرياض ، ١٤٢٥هـ - ٢٠٠٤م ، الطبعة التاسعة.
- الحياء (مطوية)، تأليف: دار القاسم، دار النشر: دار القاسم للنشر والتوزيع - الرياض.

ثبتُ الموضوعات

الصفحة	الموضوع
١	المقدمة .
٣	خطة البحث .
٧	الفصل الأول : حقيقة الحياء :
٧	المبحث الأول : تعريفه .
٧	المطلب الأول : تعريفه لغة .
٨	المطلب الثاني : تعريفه اصطلاحاً .
٩	المبحث الثاني : العلاقة بين المعنيين اللغوي والاصطلاحي وسبب تسميته بالحياء .
١١	الفصل الثاني : منزلة الحياء في الشريعة الإسلامية :
١٦	الفصل الثالث : بين الحياء والأخلاق :
١٦	المبحث الأول : بين الحياء والخجل .
١٧	المبحث الثاني : بين الحياء والرياء .
١٩	الفصل الرابع : تقاسيم الحياء .
١٩	المبحث الأول : تقسيمه من حيث الأصل .
١٩	المبحث الثاني : أقسام الحياء .
٢٧	المبحث الثالث : أنواع الحياء .
٢٩	المبحث الرابع : درجات الحياء .
٣١	الفصل الخامس : صور من الحياء .
٣١	المبحث الأول : من حياء الأنبياء .
٣٢	المبحث الثاني : من حياء الصحابة رضي الله عنهم .
٣٣	المبحث الثالث : من حياء السلف رحمهم الله .
٣٥	الفصل السادس : مظاهر الحياء .
٣٥	المبحث الأول : من مظاهر الحياء .

٣٧	المبحث الثاني : من المظاهر المنافية للحياء .
٤٠	الفصل السابع : وسائل اكتساب الحياء وتنميته .
٤٧	الفصل الثامن : آثار الأخلاق والحياء على المجتمع والفرد .
٤٧	المبحث الأول : آثار الأخلاق على المجتمع والأمة والفرد .
٤٧	المطلب الأول : بالنسبة للمجتمع والأمة .
٤٨	المطلب الثاني : بالنسبة للفرد .
٤٩	المبحث الثاني : آثار الحياء الخاصة .
٥٦	ثبت المصادر والمراجع .
٦٣	ثبت الموضوعات .